التراث العربي
سلسلة تصدرها وزارة الاعلام
في الكويت
- ١٨ -

مقالتان في الحواس

ومسائل طبيعية

رسالة للاسكندر فى الفصل
رسالة فى المرض المسمى ديابيطس

تأليف

عبد اللطيف البغدادي

دراسة وتحقيق

الدكتور بول غليونجي و الدكتور سعيد عبده

باشراف لجنة فنية من وزارة الاعلام

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

مطبعة حكومة الكويت

التراث العربي
سلسلة تصدرها وزارة الاعلام
في الكويت
- ١٨ -

مقالتان في الحواس

ومسائل طبيعية

رسالة للاسكندر في الفصل

رسالة في المرض المسمى ديابيطس

تأليف
عبد اللطيف البغدادي

دراسة وتحقيق

الدكتور بول غليونجي و الدكتور سعيد عبده

باشراف لجنة فنية من وزارة الاعلام

١٣٩٢ هـ - ١٩٧٢ م

مطبعة حكومة الكويت

مقدمة

لغز عبد اللطيف البغدادى

قد يستغرب القارىء تلقيب موفق الدين عبد اللطيف البغدادى باللغز ، فبين أيدينا عن حياته وأعماله تفاصيل تربى على ما نعرفه عن كثير من علماء عصره ، وما أكثر التراجم والنبذ التى خصصها له الرواة والمؤرخون ، ولعل أطولها وأحفلها بالحقائق عن حياته ترجمة ابن أبى أصيبعة (١) الذى عرفه معرفة شخصية وربطت بينهما أواصر صداقة وثيقة .

والسر فى ذلك الضباب الذى يتغشاه ، وذلك الغموض الذى نراه يحوم من حوله ليس فى تفاصيل حياته ، ولا هو فى تحركاته ، ولا فى نسبه ، فهذه معروفة لنا معرفة تكاد تقترب من اليقين ، وإنما السر هو اختلاف المؤرخين فى تقديرهم له ، وفى تعليلهم لدواعى تنقله المستمر بين بلد وبلد ، وفى خدمته سلطانا بعد سلطان ، والتنقل من معرفة يدرسها ويمارسها ، إلى معرفة أخرى يتناولها دون تمهيد ولا مقدمات .

وبينما نجد من معاصرى عبد اللطيف البغدادى ، من ذوى الإدراك المدقق ، والحكم السليم ، من يمتدحونه ، ويرفعونه إلى أعلى درجات العلم والفضل ، نجد آخرين ممن لا يقلون عنهم — فى اعتبارنا — سلامة حكم ، ودقة إدراك ، من يهبطون به إلى أدنى درك من الجهل والادعاء ، ويصفونه بأحط الأوصاف ، وبأبذل ما يجدون من ألفاظ .

ومن دواعى العجب أن نرى من معاصرينا الغربيين المؤمنين بتحضير الأرواح ، فى الثلث الأخير من القرن العشرين ، من يلجأون إليه عبر الحواجز القائمة بين

واقع دنيانا ، ومجاهل عالم الأرواح ، ملتمسين منه النصح والإرشاد . ويؤكدون أن عبد اللطيف هو الذى أرشدهم إلى مخطوط ضائع في غبار مكتبة (بودليان) بأكسفورد ، يعالج هذا العلم الحديث ، طالبا منهم ترجمة الكتاب ، ونشر ما فيه من معلومات (٢) ، مع أن هذا المخطوط ترجم إلى الفرنسية منذ أكثر من مائة عام . وخلت هذه الترجمة من معلومات عن الغيب ، أو إلقاء أى شعاع من النور على عالم الأرواح .

إن الأمثلة على مثل هذا التناقض في الحكم على الناس ، خلال ذلك العهد ، كثيرة ، وإلى القارىء مثلا من أمثلة هذا التناقض العجيب :

كان ابن جميع طبيبا عالما خدم الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وحظى في أيامه ، وكان على ما يقول ابن أبى أصيبعة « رفيع المنزلة عنده ، عالى القدر ، نافذ الأمر ، يعتمد عليه في صناعة الطب ، وركب له الترياق الكبير الفاروق » .

ثم إن ابن أبى أصيبعة شهد له بالفراسة وحدة التشخيص إذ قال : « وحدثنى بعض المصريين أن ابن جميع كان يوما جالسا في دكانه عند سوق القناديل بفسطاط مصر ، وقد مرت عليه جنازة فلما نظر إليها صاح بأهل الميت ، وذكر لهم أن صاحبهم لم يمت ، وأنهم إن دفنوه فإنما يدفنونه حيّا . قال فبقوا ناظرين إليه كالمتعجبين من قوله ، ولم يصدقوه فيما قال . ثم إن بعضهم قال لبعض هذا الذى يقوله ما يضرنا أننا نمتحنه ، فإن كان حقا فهو الذى نريده ، وإن لم يكن حقا فما يتغير علينا شىء ، فاستدعوه إليهم وقالوا : بين الذى قد قلت لنا . فأمرهم بالمسير إلى البيت ، وأن ينزعوا عن الميت أكفانه ، وقال لهم : احملوه إلى الحمام ، ثم سكب عليه الماء الحار ، وأحمى بدنه ونطله بنطولات ، وعطسه ، فرأوا فيه أدنى حس ، وتحرك حركة خفيفة . فقال أبشروا بعافيته ثم تم علاجه إلى أن أفاق وصلح ، فكان ذلك مبدأ اشتهاره بجودة الصناعة والعلم ، وظهرت عنه كالمعجزة ، ثم إنه سئل بعد ذلك من أين علمت أن ذلك الميت ، وهو محمول

وعليه الأكفان ، أن فيه روحـا ؟ فقال : إني نظـرت إلى قدميه فوجدتهما قائمتين ، وأقدام الذين قد ماتوا تـكون منبسطة ، فحدست أنـه حيّ ، وكان حدسي صائبا (٣) .

وبينما نجد البعض من معاصريه يمتدحه ويرثيه فيقول :

أعيني بما تحوى من الدمع فاسجمى • وإن نفدت منك الدموع فبالـدم
فحق بأن تـنرى على فقد سيـد • فقدنـا به فضل العـلا والتكـرم
وأفضل أهل العصر علما وسؤددا • وأفضلهم في مشكل القول مبهـم

إلى أن قال :

وقد كنت أهديـه الثناء مبجـلا • فها أنا أهديه الرثا جهـد معـدم
فيا قبره الوضاح لم يدر ما حوى • ترابك من جـود ومجـد مخـيم

الخ . . . .

فإنه مع ذلك لم يبرأ من هجاء هؤلاء المعاصرين ، إذ يقول فيه ابن المنجـم المصرى وكان شاعرا مشهورا ، وصفه ابن أبي أصيبعة بأنه خبيث اللسان :

وليس يدرى مـا في الزجاجة من • بول مريض ولو تمضمض بـه
وأعجب الأمر أخـذه أبـدا • أجرة قتل المريض من عصبـه

كما يقول فيه :

كذبت وصفحت فيما ادعيت • وقلت أبوك جميـع اليهـودى
وليس جميـع اليهود أبـاك • ولـكن أبوك جميـع اليهـود

ولـكننا إن صح لنا أن نهمل هجاءً من شاعر مثل ابن المنجم ، على أنه إملاء

من وحي النكتة ، أو من ضرورات الارتزاق ، أو من الغيرة ، أو من تملق الغير ، أو من النفاق ، إن صح هذا فعلينا أن نعير كل هذا الهجاء في عبد اللطيف البغدادى بعض الاعتبار إذا جاء على لسان شخص في وضع القفطى ، وهو من سلالة علماء وقضاة ، ارتقى إلى أعلى مناصب الدولة ، وكان وزيرا لأكثر من ملك ، ولقب بالقاضى الأكرم بعد أن لقب والده بالقاضي الأشرف وجده بالقاضى الأوحد .

إن ابن القفطى يصف عبد اللطيف البغدادى — كما سنرى تفصيل ذلك فيما بعد — بأن « تصانيفه غاية في البرودة والركاكة » وأنه — أى البغدادى — كان إذا اجتمع بصاحب علم فر من الكلام معه في ذلك العلم وتكلم في غيره » ، وأنني — أى القفطى — اجتمعت به واختبرته ، فرأيته فيما يدعيه كالأعمى الذى يتحسس ويدعى حدة النظر وما وثقت من روحى بذلك حتى سمعت جماعة من أهل علوم متفرقة قد كان يدعيها ، بعد نظره وكلامه نظير ما علمته منه » .

وبغض النظر عن هذا الإلحاح الغريب من القفطى في ملاحقة البغدادى بالامتحان تارة ، وتتبع آراء العلماء فيه دون ذكر لأسمائهم أو مراتبهم من العلم والمعرفة تارة أخرى ، ثم ما قد يثيره كل ذلك من الشك في هجائه المقذع العنيف ، وإمكان إحالته إلى شيء من الضغينة الشخصية . . . بغض النظر عن كل ذلك فإن القفطى نفسه على علمه وفضله لم يخل من التجريح ومن هجاء معاصريه ، وتكفى الإشارة في هذا الصدد إلى ما قاله فيه عماد الدين سليمان بن عبد الملك الزاهد داود بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب ، وسيأتى ذكره بعد حين .

إن هذا النقد الارتجالى للعلماء كان — على ما يبدو — سمة واضحة من سمات ذلك العهد المضطرب ، المائج بالمهاترات والأحداث .

ترى هل كان البغدادى عالما حقا ؟ أم تراه كان دجالا متجولا يبيع سلعه

العلمية ، ثم يفرّ هارباً خشية أن ينكشف أمره ؟ وإلا فما هو السرّ في كل هذه التنقلات ؟

لقد قسّم في مواضع أخرى (٤ ، ٥) تاريـــخ العلم وتطوره في العالم العربي إلى ثلاث مراحل : مرحلة الترجمة والنقل والتحصيل ، تليها مرحلة الإنتاج الذاتي ، التي تعقبها مرحلة الثورة على القدامى ، تلك الثورة التي عاصرت — مع الأسف — عصر التدهور والانهيار .

لقد فطن البغدادى إلى هذا التدهور العلمى في مرحلة الانهيار التي عاش فيها ، وشاركه الـــكثيرون من معاصريه شعوره بجهل أطباء هذا العصر ، ومن هؤلاء (ابن الجميـــع) الذى أسلفنا ذكره ، لقد كتب ابن الجميـــع في القرن الثانى عشر الميلادى مقالة لم تنشر بعد ، عنوانها يدل على محتواها : « المقالة الصلاحية (نسبة إلى صلاح الدين) في إحياء صناعة الطب » (٦) ، وهذه الرسالة حققتها العالمة العربية الدكتورة سميرة يوسف جدعون ، وهى في صدد نشر ترجمة إنجليزية لها (٧) ، وقد ورد في هذه الرسالة أن ابن الجميـــع بحث مع الناصر صلاح الدين في خلال زيارة قام بها لدمشق ، مسببات الانهيار العلمى المعاصر ، وكيف أن الجهل سيطر على الأطباء . عزا هذا إلى أن الأحشاء محجوبة عن النظر وأن الأطباء يحجمون عن ممارسة التشريـــح الذى أوصى به جالينوس ،وأن كتابة التعليقات المختصرة التي انحرفت عن تعاليم أبقراط وجالينوس قد كثرت ، وأن الأطباء أصبحوا يكتفون بدراستها دون العودة إلى أصول هذين العالمين ، ثم أوصى بتشجيـــع أساتذة الطب وطلابه ، وقصر التدريس على تعاليم أبقراط وجالينوس ، وتدريب الطلبة بالمستشفيات ، وامتحانهم قبل الترخيص لهم بمزاولة المهنة ، ومراقبتهم وهم يمارسون التطبيب .

وقد كان ابن جميـــع ممن انتقدوا (قانون) ابن سينـــا في مؤلفه « كتاب التصريـــح بالمكنون في تنقيـــح القانون (٨) .

كما انتقد عبد اللطيف البغدادى كثيرا من معاصريه ، وكان وقوعه كثيرا جدا في علماء العجم ومصنفاتهم وخصوصا الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه، وسنرى كيف كان انتقاده لهم في سياق الكلام .

نجد عبد اللطيف يقع تلقائيا في المرحلة الثالثة من تاريخ العلم العربى ، مرحلة الانهيار والثورة على القديم، وسواء أكان مرغما على ذلك بحكم تاريخ نشأته ، أم مخيّرا فيه لما طبع عليه من سخط على ما كان يراه ، وقلة احترام للقائم من الأوضاع ، فإن كبرياءه كانت — في رأينا — سبب تعاقب تنقلاته من البلاد التى يعمل بها ، ونزوحه المتكرر من عاصمة إلى عاصمة ، وتغييره نشاطا بنشاط .

إن هذه الثورةليفسرها علماء النفس بأنها نضال داخلى بين المبالغة في التقدير الذاتى والاعتقاد بالتفوق على الغير من جهة، وبين ضرورات المعيشة اليومية، ووجوب الرضوخ لظروف الحياة الاجتماعية من جهة أخرى .

بيد أن البغدادى على كثرة عيوبه ، جدير بالاحترام والتقدير ، لأنه كان من القليلين الذين تجاسروا على التمرد على سلطان الأطباء القدامى ، وأعلنوا بصراحة تامة عن آرائهم الخاصة ، وإن خالفت آراء الأطباء الأقدمين .

كما ثار عبد اللطيف البغدادى ثورة أخرى على أسلوب الكتابة فيعصره ، الذى غلبت عليه المحسنات اللفظية ، كالسجع والإطناب ، والولع بالطباق والمقابلة والتورية والذى كان يمثله القاضى الفاضل آخر كتاب الدولة الفاطمية ، وأول كتاب الدولة الأيوبية ، فكتب البغدادى بأسلوب يخالف ذلك تماما ، لا يكاد يختلف في بساطته ، وإيجازه ، وعزوفه عن إهدار المعانى على مذبح الألفاظ ، عن أسلوب الكتابة في العصر الحديث .

ويصف سلامة موسى أسلوب عبد اللطيف البغدادى بأنه « أسلوب من أرق

الأساليب وأن للبغدادى أفكارا عصرية غريبة ، ورغبة في الدقة ، ونزوعا إلى التحقيق العلمى ، مع نقائض قد يعذر عليها للزمن الذى عاش فيه » .

وقد حاولنا في هذا المؤلّف المتواضع جمع ما قيل عن هذا العالم الغريب ، وما كتب عنه ، وتحليل بعض ماوصل إلينا من تأليفه ، عسانا ننجح في وضع القارئ المميز أمام مستندات تسمح له بتكوين رأى عن شخصية ، نعدّها من أغرب شخصيات التاريـــخ .

وقد اعتمدنا في النصوص على نشرات ومقالات علماء العرب أمثال الدكتور عبد الرحمن بدوى ، والمستشرقين أمثال بروكلمان وديترش وشترن وكراوس ، كما أننـــا حصلنا من مكتبة الأسكوريال على صورة شمسية من مخطوط له .

واننا إذ نشكر لوزارة الإعلام معاونتها إيانا ، وتشجيعها المستمر لنا، ووضع إمكاناتها في خدمة هذا البحث .

نشكر للسيد جريجوريو دى أندريس Gregorio de Andres أمين مكتبة دير (سان لورنزو دل اسكوريال) وكل من عاونونا في هذا البحث المتواضع لحياة طبيب عربى طالما كثر فيه القيل والقال .

الديباجة

لمحة تاريخية

كان العالم الاسلامى في القرن السادس الهجرى (الثانى عشر الميلادى) قد تفتت إلى دويلات يحارب بعضها بعضا . ففى الغرب أفل نجم الفاطميين وانكمش ملكهم حتى انحصر في مصر . ولم يصبح لهم فيها سوى شبح سلطان خاضع لوزراء من المرتزقة ، وشاعت الفوضى وعمت الأوبئة والمجاعات والفتن والغدر والقتل والمؤامرات .

وفي آسيا استولى الصليبيون على الشاطىء الشرقي للبحر الأبيض المتوسط من عسقلان إلى أنطاكيا ، واستولوا على بيت المقدس .

وفي الشرق تقاسم السلاجقة بلاد فارس والعراق وسوريا وتسلطوا على الخلفاء العباسيين .

أفاق هذا العالم الغافل عن مصلحته بهمة صلاح الدين الأيوبى . فقد ذهب هذا الفاتح السياسىّ الفذ إلى مصر ، أول مرة ، في سنة ٥٥٩ هـ (١١٦٤ م) وعيّن فيها وزيرا لآخر الخلفاء الفاطميين ، ثم دفع التاريخ دفعا . وعند وفاة نور الدين ابن زنكى (٥٧٠ هـ — ١١٧٤ م) ، أعلن استقلال مصر وانتزع سوريا من إسماعيل بن نور الدين ، فولاه الخليفة العباسى سوريا الوسطى ، وغرب جزيرة العرب ، وفلسطين ، والنوبة ، والمغرب . وتابع صلاح الدين فتوحه بدخوله الموصل في سنة (٥٨١ هـ — ١١٨٥ م) ، وانتصاره على الصليبيين سنة (٥٨٤ هـ — ١١٨٧ م) في معركة حطين وفتح بيت المقدس ، وأغلب بلاد

الشام ، وفلسطين ، وكان يسيطر عليها الفرنجة ، هذا فيما عدا أنطاكية وطرابلس وصور ، ثم هادنهم (١١٩٢ م) وترك لهم ساحل البلاد و آل إليه داخلها .

إلا أن هذه الوحدة التى حققها وربطت بين بلاد العرب المختلفة لم تدم طويلا بعد وفاته ، إذ اقتسم خلفاؤه المملكة ، فآلت دمشق إلى الملك الأفضل ، والقاهرة إلى العزيز ، والكرك إلى العادل ، وحلب إلى الظاهر . وبعد وفاة العادل حكم حمص وحماه واليمن حكام من فروع أخرى من الأسرة الأيوبية .

أما في بغداد فإن النضال بين أمراء السلاجقة أضعفهم وكسر شوكتهم ، فحث ضعفهم الخليفة الناصر على آخر محاولة للنهوض بملكه : فعدّل منظمات الفتوّة وبث فيها حياة جديدة ، ونشر العمران وأعاد إلى عاصمته مظاهر الرخاء ولكنه أفسد عمله إذ أخطأ خطئين جسيمين : أولهما أنه أوعز إلى أحد أتراك خوارزم — هو طكش حاكم هذه المنطقة — بمهاجمة سلاجقة العراق الفارسى بغية الخلاص من استبدادهم ، ولكن طكش ، بعد انتصاره على السلطان السلجوقي طغرل (١١٩٤ م) واستيلائه على بخارى وسمرقند والجزء الأكبر من إيران ، قرر إنهاء الخلافة العباسية . فأخطأ الخليفة خطأه الثانى إذ استنجد — على قول بعض المؤرخين — بجنكيز خان ، فكانت بداية اكتساح الجزء الأكبر من العالم المعروف وتأسيس أوسع امبراطورية في تاريخ العالم على حساب الأمة العربية ، وعاش الشرق العربى بعدها في قلق مستمر .

ومع ذلك ننقل إلى القارئ وصفا دقيقا لحال هذا العالم ، من كتاب « أيام صلاح الدين » للأستاذ عبد العزيز سيد الأهل (٩) ليرى كيف أن المسلمين — مع محنتهم — لم ينصرفوا عن العلم والدراسة ولو أنهم وضعوا علوم الدنيا بعد العلوم الكلامية وعلوم الدين :

« وحفلت الأندية والمجالس والمساجد وخيام الحرب وميادينها بمحاورات

العلم والأدب . . . وتراسل العلماء والأدباء بمناظراتهم كما تحادثوا بها ، ومن أشهر تلك المراسلات ما كان بين القاضى الفاضل وابن سناء الملك .

ولم تعق الحروب الحادثة رحلة الناس من مكان إلى مكان . فانساح الناس لطلب العلم والحديث والفقه والأدب والنحو والطب وأتت دمشق وفود الطلاب من كل فج . وكانت آفاق الأرض حين ذلك مفتحة الأبواب ، قد اتصلت مصر بالشام والعراق وخراسان والمغرب ، والمسافر فى هذه البلاد لا يصده أحد ولا تحجزه حدود ، وكان التاجر والمسافر في مدة سفره يتلقى العلم حيث نزل ، وكأنه ضرورة كالطعام والشرب ، لأن المسافر يقصد المساجد الجوامع لامحالة ، فيجد فيها علوم الدين والأدب والشعر والحكمة فينهل منها ما يناسبه وما يشاء .

وكانت المجالس تعقد والندوات تجتمع . . . فإذا نزل القاهرة شاعر دمشقى أو نزل دمشق شاعر قاهرى اجتمع الشعراء لديه وأبقوه عندهم زمانا قبل أن يتمكن من الرجوع إلى بلده ، فيتمتع الناس بأدبه كما يستمتع هو بضيافتهم وإكرامهم . »

في هذا العالم القلق ظهر عالم لمع بعلمه الواسع وبطبه الشافي ، ودرس العلوم الكلامية والدينية ، وكتب التآليف في الطب والجغرافيا والنحو والفقه ، وتنقل بين البلاد العربية ، ووصف بعضها وصفا دقيقاً زاخرا بالملاحظات الطريفة ، وذاع صيته في البلاد العربية ، ولكنه حيّر المؤرخين لدى تقديرهم له ، وذلك العالم هو عبد اللطيف البغدادى .

الباب الأول

تاريخ حياة عبد اللطيف البغدادى

ولد موفق الدين عبد اللطيف البغدادى في بغداد سنة ٥٥٧ هـ من أصل موصلى، واشتهر باسم عبد اللطيف البغدادى ولقب بابن اللباد .

أخبرنا عنه ابن أبى أصيبعة (١) وهو الكاتب الذى لا غنى عن العودة إليه عند البحث في طب العرب وأطبائهم ، وللمعلومات الواردة في هذا المصدر عن عبد اللطيف البغدادى طابع واقعى خاص لمعرفة ابن أبى أصيبعة بالبغدادى معرفة شخصية ، فقد كان جد المؤرخ – حسب قوله – صديقا للبغدادى ، وتتلمذ أبوه وعمه عليه في الأدب ، ودرسا عليه كتب أرسطاطاليس ، ثم قامت بين ابن أبى أصيبعة والبغدادى علاقات صحبة وطيدة عندما تلاقيا بالديار المصرية ، وتقابلا في دمشق ، وأطلع البغدادى ابن أبى أصيبعة على سيرته التى ألفها بخطه ، ونقل عنها ابن أبى أصيبعة نبذا كثيرة ذكرها في مؤلفه ، وهذه وقائع سنعرض لجانبها من الصحة ومدى اعتمادها فيما بعد .

ويستخلص من هذه النبذ أن البغدادى ولد في سنة ٥٥٧ هـ (١١٦٢ م) بدار لجده في درب الفالوذج ببغداد، وكان والده يوسف مشتغلا بعلم الحديث وبعلم القراءات ، متضلعا في المذهب والخلاف والأصولين ، كما أن عمه سليمان كان فقيها مجيدا .

نهل البغدادى من هذا المنهل العلمى الفياض ، ويسّر له والده في صباه سماع الحديث من جماعة ، منهم أبو الفتح محمد بن عبد الباقى المعروف بابن البطى ، وأبو زرعة طاهر بن محمد القدسى ، وأبو القاسم يحيى بن ثابت الوكيل، وغيرهم .

فنشأ في جو من العلم والتقوى ، وامتاز في النحو وعلوم اللغة والـكلام ، وكان عزوفا عن اللهو ، يصرف أكثر أوقاته في الدراسة ، ولما سمعه والده ألحقه في الرواية بالشيوخ المسان ، ورآه متضلعا في الخط والقرآن والفصاحة وحفظ المقامات وديوان المتنبي – دون التوسع في النحو والفقه – فحمله إلى شيخ بغداد كمال الدين عبد الرحمن الأنبارى الذى كان له به صحبة قديمة ترجع إلى أيام التلمذة بالمدرسة النظامية . فلم يفهم البغدادى من كلام الشيـخ شيئاً حتى قال له الشيـخ : « أنا أجفو عن تعليم الصبيان » وأوصـى بحمله إلى تلميذه الوجيه الواسـطى ، وكان رجلا أعمى من أهـل الثروة والمروءة – فظل البغدادى يلازم الشيـخ ويتردد معه على الشيخ ، وينكب على الحفظ والتكـرار أكثر الليل حتى أنه – حسب قوله – سبق الشيخ وقرأ كل ما وجـد من الشروح ، وشرع يشرحها لتلاميذ اختصوا به ، إلى أن صار – على حد قوله أيضا – يتكلم كراريس على كل باب ولا ينفد ما عنده . وكان يحفظ المؤلفات في مدد قصيرة . وحفظ عن الشيـخ كمال الدين الأنبارى طائفة من كتب سيبويه ثم تجرد لهـا ولشرح السيرافي . ومن المشايـخ الذين ذكر موفق الدين فضلهم عليه ولد أمين الدولة بن التلميذ ، وقد بالغ في تقديره له مبالغة انتقدها مؤرخه ابن أبى أصيبعة وأرجعهـا إلى تعصب البغدادى للعراقيين لأن ولد أمين الدولة لم يـكن في رأيه بهذه المثابة ولا قريبا منها .

أما الذين لم يعجب البغدادى بهم فكثيرون ، منهم شخص مغربى « قال إنه له أبهة وصورة عليها مسحة الدين ، يعرف بابن نائلى ، كان يحضره جماعة من الأكابر يوهمهم أنه متبحر . فشوقه كلام ابن نائلى إلى علوم الكيمياء والطلاسم وما إليها ، وأكب البغدادى على الـكتب التى تناولت هذه العلوم ، أمثال كتب الغزالى ، وبهمنيار تلميذ ابن سينا ، وجابر بن حيان ، إلا أنه رجع عنهـا بعد مدة قائلا : « وباشرت عمل الصنعة[1] الباطلة وتجارب الضلال الفارغـة ،

(١) كانت (الـكيمياء) تطلق على محاولة تحويل المعـادن إلى ذهب ، وكانت تسمى أيضا « الصنعة » .

وأقوى من أضلتى ابن سينا بكتابه في الصنعة الذى أتم به فلسفته التى لا تزداد بالتمام إلا نقصا » كما قال عن الشيخ عبد الله بن نائلى إنه كان يسأله عن أمور خسيسة فيعظمها ويكتبها منه وإنه لم يجده كما كان في نفسه . . . الخ . —

وفي سنة ٥٨٥ هـ (١١٩٠ م) حيث لم يجد بعد في بغداد « من يملأ عينيه ، ويحل ما يشكل عليه » رحل إلى الموصل ، فلم يجد بها أيضا من يروق في نظره سوى الكمال بن يونس إذ وجده متضلعا في الرياضيات والفقه ، واستغرق عقله حب الكيمياء حتى صار يستخف بكل ما عداها . وعرضت على البغدادى بالموصل عدة مناصب اختار منها مدرسة مهاجر المعلقة ، ودار الحديث التى تحتها . ومما يدل على درجة اعتداده بنفسه أنه — بعد أن قام بالموصل سنة — قال إن أهل الموصل لم يروا من أحد قبله ما رأوه من العلم والاطلاع ، ونعت غيره بالحماقة وادعاء العلم بدون حق ، ومن هؤلاء الذين نال منهم الشهاب السهروردى .

ورحل من الموصل إلى دمشق ، واجتمع بعلمائها ، وتفوق فيها — حسب قوله — على مناظريه ، وألف بعض المصنفات في غريب الحديث وفي العلوم الدينية ، ولم يعتق قلمه الدمشقيين ، فنال منهم كما سبق أن نال من غيرهم ، مثال ذلك أنه قال عن الكندى البغدادى البحرى ، إنه كان معجبا بنفسه مؤذيا لجليسه ، وإنه جرت بينهما مباحثات أظهره الله تعالى عليه فيها ، وإن كان وصفه بأنه كان شيخا ، بهيا ، مثريا له جانب من السلطان .

وبعد دمشق ذهب هذا الدائم التجوّل إلى صلاح الدين بظاهر عكا حيث اتصلت بأهلها شهرته من قبل ، فذهب به بعضهم إلى الشيخ القاضى الفاضل فسأله الشيخ عن بعض أقوال الله سبحانه وتعالى وهو لا ينقطع عن الكتابة والإملاء ، ونجم عن هذا اللقاء أن عرض عليه القاضى الفاضل الجرايات في دمشق ، فأصر البغدادى على الذهاب إلى مصر ، فحمّله مكتوبا إلى وكيله بها ابن سناء الملك — وكان لهذا المكتوب أطيب الأثر إذ قابله الوكيل بحفاوة جمة وأجزل له العطاء ، وعرّف أرباب الدولة بأنه ضيف القاضى الفاضل ، فانهالت

عليه الهدايا من كل جانب ، وما فتئ القاضي الفاضل يؤكد الوصية عليه في كل خطاب يرسله إلى القاهرة .

وكان البغدادي يقصد من زيارته إلى مصر لقــاء ثلاثة ـ ياسين السيميائي ، وموسى بن ميمون ، وأبي القاسم الشارعي ، وقد ألفى ياسين مشعبذا كذابا ، يدعي تحضير الذهب المضروب متى شاء وبأية سكة شاء ، وأنه يجعل ماء النيل خيمة يجلس وأصحابه تحتها ، وأنه يعمل ما يعجز موسى بن عمران عن عمله . أما موسى بن ميمون فقد ألفاه فاضلا في الغاية ، إلا أنه غلب عليه حب الرياسة ، وخدمة أرباب الدنيا ، وقد وضع كتابا في الطب نقلــه عن جالينوس ، وكتابا أسماه (كتاب الدلالة) ، لعن فيه من يكتبه بغير العبرية ، وهو كتاب قال فيه البغدادي إنه يفسد أصول الشريعة . وأما أبو القاسم فقد لقيه صدفة في المسجد ، ولما علم من هو اعتنقه ، وقال : إياك أطلب ، ثم وجده كما « تشتهي الأنفس وتلذ الأعين » ، لا يطلب من الدنيا إلا الفضيلة . وقد اختلفا في حكمهما عــلى الفارابي وعلى القدماء ، وكان البغدادي لا يؤمن بأحد من هؤلاء لظنه حينذاك أن الحكمة كلها حازها ابن سينا ، إلا أنه لان شيئا فشيئا بمعاشرته أبا القاسم .

وبعد ما هادن صلاح الدين الفرنجة عاد البغدادي إلى القدس ، وكان هذا في سنة (١١٩٢ م) ، فكتب له صلاح الدين بثلاثين دينارا كل شهر وعينه في ديوان الجامع بدمشق ، وأضاف أولاد صلاح الدين إلى هذا الراتب بما أطلقوه له ، حتى صار ما يتقاضاه كل شهر مائة دينار .

ومن ثم عاد إلى دمشق وانــكب على دراسة القدماء فزاد إعجابه بهــم وقل تقديره لابن سينا ، واقتنع نهائيا ببطلان الــكيمياء وقال فيها : « وتضــاعف شكري لله ســبحانه على ذلك فإن أكثر الناس إنما هلــكوا بكتب ابن ســينا والــكيمياء » .

وبعد وفاة صلاح الدين (سنة ٥٨٦ هـ ـ ١١٩٣ م) أقام عبد اللطيف بدمشق إلى أن جاء الملك العزيز من مصر ليحاصر هذه المدينة ، ولما لم ينجح الملك العزيز

في فتحها خرج له البغدادى طالبا مصاحبته ، فرحل معه إلى القاهرة حيث ظل مدة طويلة يقرئ الناس في الأزهر في أول النهار ، ثم يقرئهم الطب في وسطه ، ثم يعود إلى الأزهر آخر النهار ليقرئ قوما آخرين . وقد أجزل له أولاد صلاح الدين من العطاء حتّى وفاة الملك العزيز .

وفي خلال هذه الزيارة الثانية لمصر ، وقعت بالقاهرة سلسلة من المآسى أفرد لها فصلين من مؤلف وصف فيه أرض مصر (وهو كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) ، الذى سنعرض له فيما بعد . وعندما ملك السلطان الملك العادل سيف الدين أبو بكر بن أيوب الديار المصرية ، وتفرق أولاد أخيه الناصر صلاح الدين ، انتقل البغدادى إلى المقدس حيث درّس علوما كثيرة بالجامع الأقصى . ومن ثم ذهب إلى دمشق (سنة ٦٠٤ هـ — ١٢٠٧م) وعمل بالمدرسة العزيزية حيث شاع صيته وكثر تلاميذه . ويمكن تحديد بدء شهرته في الطب بهذا الحين ، أما شهرته قبل ذلك فإنما كانت في علم النحو .

ومن دمشق رحل هذا المتجول الدائم إلى حلب ، ومنها إلى بلاد الروم حيث أقام في خدمة الملك علاء الدين داود بن بهرام — صاحب (أرزنجان) — حتّى استولى السلطان كيقباد بن كيخسرو بن قلج أرسلان على ملكه (سنة ٦٢٥ هـ — ١٢٢٧ م) ، وتوجه في السنة نفسها إلى (أرزن الروم) ، ثم عاد إلى أرزنجان (سنة ٦٢٦ هـ) ومنها إلى كماخ ثم إلى دبركي ثم إلى ملطية ثم إلى حلب حيث درّس الطب ردحا من الزمن ، وقد عزم بعد ذلك على الانتقال إلى دمشق ونوى تأدية فريضة الحج ، فجعل طريقه إلى بغداد ليقابل الخليفة المستنصر بالله ، فمرض في هذه المدينة وتوفاه الله يوم الأحد ١٢ من محرم سنة ٦٢٩ هـ(٨—١١—١٢٣١ م) عن ٦٩ أو ٧٢ سنة ، ودفن عند أبيه بالوردية ، وكان قدخرج من بغداد وغاب عنها خمسا وأربعين سنة .

ويبدو أنه تزوج وأنجب ، حيث إن ابن أبي أصيبعة نسب اليه ترجمة كتبها لابنه شرف الدين بن يوسف .

الباب الثانى

مؤلفات عبد اللطيف

إن ما وصلنا من مصنفات البغدادى ، ما هو إلا قبس من إنتاج ضخم تضمن – تبعا لابن أبي أصيبعة – ١٧٣ عنوانا بين مقالة صغيرة وكتاب ضخم ، وزعها الأستاذ الدكتور بدوى على الوجه الآتى (٢٣) :

١٣ – في اللغة وعلومها ،
٢ – في الفقه ،
٩ – في النقد الأدبى ،
٥٣ – في الطب ،
١٠ – في الحيوان ،
٣ – في علم التوحيد ،
٣ – في التاريخ ،
٣ – في الحساب والعلوم ،
٤ – في التعليم ،
٢ – في السحر والمعادن ،
٢٣ – متنوعة ،

و٤٨ في الفلسفة : منها ١٩ في المنطق ، و ١٠ في الطبيعيات ، و٨ في الإلهيات ، و ٩ في السياسة ، واثنين يجمعان بين المنطق والطبيعيات والإلهيات ، منهما الكتاب الجامع الكبير في المنطق والعلم الإلهى وهو زهاء عشر مجلدات ، الذى تم تصنيفه في نحو نيف وعشرين سنة .

وقد تحسّر الأستاذ الفيلسوف الدكتور بدوى على ضياع كتبه في المنطق على ما يبدو من عناوينها ، وخص بالذكر مقالتين في مشكلتين من أطرف المشكلات التي ما تزال تشغل علماء المنطق حتى اليوم ، أولاها مقالة في تزييف الشكل الرابع ، انتهى فيها عبد اللطيف إلى ما انتهى اليه علماء القرن الحالى ، والثانية مقالة في تزييف ما يعتقده أبو على بن سينا من وجود أقيسة شرطية تنتج نتائج شرطية ، وهذه المشكلة تسبب في وجودها ابن سينا ، وقد أثيرت حديثا كما أثيرت بين علماء العرب من قبل ، ولم ينتــه البحث فيها إلى الآن وإن كانت أغلبية الآراء تقول قول البغدادى لأن معظم نتائج الأقيسة الشرطية شكلىّ لفظىّ محض . وأضاف الأستاذ الدكتور بدوى أنه يودّ لو عرف حجج عبد اللطيف في استنتاجاته .

وقد ذكر بروكلمان (١٠) ما وصل إلينا من هذه المؤلفات وسنشير إلى شىء منه مكتفين باختصار ما جاء من تعليق عليها عن أقلام المستشرقين والمعلقين ، بغية رسم صورة مبسطة لإنتاج هذا العالم ولأسلوبه ، وقد أفردنا الباب الثالث من هذا الــكتاب لــكتاب الإفادة والاعتبار ، واستنسخنا نص رسالته (في الفصل) في آخر هذا الباب ، كما استنسخنا في الباب الرابع نص الرسالتين في الحواس والمســائل الطبيعية وفي الــباب الخامس نص الرســالة فى مرض الديابيطس ، وعلقنا عليها تعليقا مفصلا . وإلى القارئ كشفا بالــكتب التى في علمنا أنها وصلت الينا :

١ – كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر ، وسنفرد له الباب الثالث من هذا الــكتيب .

٢ – مجموعة بمكتبة الأسكوريال بأسبانيا تحوى مقالين في الحواس ومسائل طبيعية ، وسنفرد لها الباب الرابــع .

٣ – ثلاثة مخطوطات مودعة بدار الــكتب المصرية هى :

(ا) (المجرد في غريب الحديث) .

(ب) (شـــرح تقدمه المعرفة لأبقراط) وهو نسخة نقلت من مخطوط مودع بالمكتبة الظاهرية بدمشق .

(ج) (ملخص مقالات التاج في صفات النبى) مودع ضمن مجموعة مخطوطات رقم ٥٩ بدار الـــكتب المصرية بالقاهرة .

٤ – مؤلفان ببرلين ، هما (شرح مسائل حنين) و (شرح فصـــول أبقراط لجالينوس) .

٥ – الطب من الـــكتاب والسنة ، مودع في كمبردج ؛

٦ – فتوح الوقت ، مودع بالمتحف البريطانى ضمن مجموعة من الأحاديث عنوانها (روح العارفين) .

٧ – المغنى الغالى في الحساب الهندى ، المودع نسخ منه ببيروت ودمشق ؛

٨ – تعليق على تشريح لطف الله المصرى .

٩ – شرح ديوان أبى يحيى عبد الرحيم بن نباتة ؛

١٠– لماع القوانين المذيعة فيدواوين الديار المصرية .

١١– كتاب في علم مـــا بعد الطبيعة (مخطوط رقم ١١٧ حكمة تيمور بدار الـــكتب بالقاهرة) ، وهـــو كتاب في علـــم ما وراء الطبيعة وصفـــه كراوس (١١) باختصار مكتفيا بالإشارة إلى أنه منقول من أربعة كتب سنذكرها فيما بعد . ويقول الدكتور عبد الرحمن بدوى: « إن الذى دعا البغدادى إلى تصنيف هذا الـــكتاب هو أنه وجد لابن سينا – خصيمه اللدود في الدور الثانى من حياته – تصـــانيف تخالف رأى المشـــائين[1]

---

(١) المشاءون فئة من فلاسفة الاغريق Peripateticians ، منتمية إلى مدرسة أرسطو ، سميت بهذا الاسم نسبة إلى الطريق Peripato التى كانت تحيط البارثنون فى قلب أثينا ، والتى كانوا يتمشون فيها وهم مسترسلون فى جدلهم .

ولا يعود منها القارىء بفائدة ، لهذا رأى تصنيف هذا الكتاب الذى سيعتمد فيه خصوصا على الفارابى . وهو يبدأ الكتاب فعلا بنقل مقالة لأبى نصر (أى الفارابى) ذكر فيها الفارابى أغراض « ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس (٢٣) » .

ويرى الدكتور بدوى (١٢) أن هذا المؤلف هو الذى ذكره ابن أبى أصيبعة بعنوان (مختصر فيما بعد الطبيعة) ، لأنه يختصر في أربعةوعشرين فصلا أربعة كتب مختلفة في هذا العلم ، هى التى ذكرها كراوس ، وهى : من الفصل الأول إلى الفصل١٦ (كتاب ما بعد الطبيعة) لأرسطو ، ومن١٧ إلى ١٩ كتاب (العناية) للاسكندر الأفرودیسی Alexander of Aphrodisias ،

والفصل العشرين كتاب (إيضاح الخير) ، أما الفصول الأربعة الباقية فإنها مستخلصة من كتاب (أثولوجيا) المنسوب إلى أرسطو وهو في الحقيقة فصول منتزعة من (تساعات) أفلاطون .

وقد نشر الدكتور بدوى الجزء المنقول عن كتاب (الخير المحض) وأبدى رأيا فيه مستندا إلى حجج قوية ، أن الكتاب كان اسمه — أول الأمر — (الخير الأول) ، ثم سمىّ بعد ذلك (الخير المحض) ، وأخيرا سمّى (كتاب العلل Liber de causis) ، وأنه مستخلص من كتاب (إيضاح الخير لأبرقلس اليونانى Proklos) ، وإن كان قد نسب عند العرب إلى أرسطو ، وقد كان لهذا الكتاب تأثير بالغ على الفارابى وابن سينا وإن كانا لم يذكراه بالاسم ، غير أن البغدادى كان أول من ذكر مصدره باسمه ونقل عنه فصولا وجملا بحروفها ، وهذا واضح من مستهل هذا الجزء : « قال الحكيم (وهو أرسطو) في كتاب إيضاح الخير وهو كتاب العلل : « كل علة كلية أولى فهى أكثر فيضا على معلولها من العلة الكلية الثانية » ، وفي جزء آخر : « قال أفلاطون في أول كتاب طماوس إن الأمور . . » .

أما فصول هذا الـكتاب المختلفة ، كما حللها الدكتور بدوى ، فإن الفصل الأول يتحدث عن كيفية اكتساب العلم وإمكان ذلك ، ويبين أن الشيء لا يعلم علم اليقين إلا من جهة أسبابه . ولذلك كان علم الأسباب واجبا .

ثم يبين الفصل الثانى أن العلل متناهية والقول بعلل لا نهاية لها محال من وجوه كثيرة أخذ يبينها ، ويتناول مسائل رئيسية في علم المعـرفة مثل : هل مبادئ البرهان أقدم من مبادئ الجوهر ، وغيرها .

وفي الفصل الثالث يستعرض المعانى الرئيسية التى يتألف منها علم ما بعـد الطبيعة مثل : العلة ، الأسطقس ، الطبيعة ، الضرورة ، الواحـد ، النهاية ، الأين ، المتى ، الخ .

والفصل الرابـع يتناول أقسام « ما بعد الطبيعـة » : الوجود ، الواحـد، الاشتراك ، الخ .

والخامس : أقسام الموجود الحقيقى ، لا الذى بالمعارض .

والسادس : الحدود ومبادئها ، والسابع : الأسباب الأربعة وإبطال المثل الأفلاطونية ، والثامن : الصور ، في حدها وكيفية اتحادها بالهيولى ، والتاسع : أن الحدود للكليات لا للأشخاص الدائرة ، والعاشر : جمل ما سبق في الحدود والمواد والصور ، والقوة والفعل ، والحادى عشر : الواحد والـكثير والغير والضد . . . ، والثانى عشر : الأجزاء التى لا تتجزأ ، والثالث عشر : ما تتضمنه مقالة اللام أن الفلسفة الأولى هى النظر في الموجود المطلق وفي مبادئه وعلله وأن الـكم والكيف وسائر المقولات ليس لها الوجود المطلق بل وجودها في الجوهر وبالجوهر ، والرابـع عشر في « علم الهيئة المتصل بمقالة اللام »أى الفصل الثامن من مقالة اللام الذى يتحدث عن الأفلاك وعقول الأفلاك وينتهى إلى عدد حركات الأجزاء السماوية ، فهو بذلك تجاوز مقالة اللام واستعان بمعطيات علم الفلك بعد

أرسطو ، والخامس عشر : الحركة ، والضد ، والغـاية ، وسائر الأسباب ، والسادس عشر : سريان القوة والنظام من المبدأ الأول ، والسابع عشر : كيفية نفوذ التدبير من العالم الأعلى إلى العالم الأدنى ، وهو ينقل فيه عن كتاب «التدبير» المنسوب إلى أرسطو ، والثامن عشر : العناية الإلهيـة . والتاسـع عشر يتناول الاستطاعة فيقول : أما أن للانسان روية واستطاعة فهو من الظهور في مـرتبة لا يحتاج معها إلى برهان . ولو لم تكن له استطاعة لم توضع النواميس والشرائع ، ولم يوجد مدح ولا ذم و لا ثواب .. ولا تأنيب . . . الخ . . .

أما من أين عرف عبد اللطيف هذا الـكتاب ومن ترجمه إلى العربية فإنها مسألة ليس لها حلّ ، وإن كان الدكتور بدوى يعتقد أن الذى نقله إلى العربية كان أحد كبار المترجمين أمثال إسحق بن حنين أو أبى على عيسى بن زرعة ، إذ أن أسلوبه أقرب إلى أسلوب كليهما .

وقد قيل أيضا إن هذا الـكتاب أصلا من تأليف الفارابى أو ابن داود ، غير أن أغلبية العلماء أجمعت على أن أحد تلاميذ أبرقلس أو أحد رجال الأفلاطونية المحدثة استخلصه من عناصر (الثاؤلوجيا) لأبرقلس ونسبه إلى أبرقلس نفسه .

١٢ ــ مجموعة بروسيا : كانت هذه المجموعة في حيازة عبد الرحمن بن على ابن المؤيد المعروف باسم شاه زادة ، العالم الحنفى المتوفي سنة ٩٤٤-١٥٣٧ ، وقد انتهى استنساخها ــ حسب ما جاء في ذيلها ، في ٢٥ جمادى الآخرة من سنة ٦٢٢ ، والمؤلف ما يزال على قيد الحياة ، وفي رأى ناشـرها ديتّريش (Dietrich) (١٣) أن المؤلف قارنها بالأصـل ، فقد أضيفت إلى المقال السابع رواية لقاء حدث بين عبد اللطيف وكيميائى بأرزنجان في سنة ٦٢٢ ، الأمر الذى يشير إلى أن هذه النسخة أعدت للمؤلف ، أو أنها كتبت تحت ملاحظته ، وأنه راجعها بنفسه وأضاف إليها تلك الرواية . ومما يعزّز هذا الرأى أن اسم المؤلّف ورد دون أى لقب ، وتلك عادة لم تكن تتبع إلا إذا نسخ المؤلف مصنفه بيده أو إذا استنسخ له . ويرى ديترّش أيضـا أن الخط يشابه خط نسخى (كتاب

الإفادة والاعتبار) المحفوظتين ، إحداهما في المكتبة البودلية بأكسفورد ، الثانية بالقاهرة حيث أودعت سنة ٦٠٠ ، حسب التذييل ، وإن كان ابن أبي أصيبعة ذكر أنه تم بالقدس سنة ٦٠٣ . ويرجح ديترش أن تكون الاثنتان بخط عبد اللطيف ذاته ، وأن سبب التباين بين التاريخين أن عبد اللطيف راجعهما مراجعة أخيرة بعدوضعهما بثلاث سنوات ، وأن الاختلافات الطفيفة بين خط (الإفادة) وخط المجموعة طبيعية بعد مرور نحو من عشرين سنة بين الاثنتين ، وهذا يتفق وماهومعروف من أن عبد اللطيف اعتاد نسخ مؤلفاته بنفسه ليوزعها .

أما شترن (Stern) الذى نشر جزءا من المجموعة (١٤) فقد نسب الكتابة إلى خطاط محترف ، فيما عدا بعض الهوامش ، وعنوانين ناقصين من المتن ، ونبذتين أضيفتا إلى آخر المقال السابع ، إحداهما على ورقة منفصلة والأخرى على جزء شاغر في آخر الصفحة ، وإشارة في الهامش إلى خطأ وردفي ترتيب الصفحات وطريقة تصحيحه ، وبعض التصحيحات والإضافات الأخرى التى تنبئ طبيعتها على أنها بخط المؤلف .

وقد استقينا معلوماتنا في صددها من مقالات ديترش وشترن وثيس ، وأعدنا ترجمة أكثر نصوصها إلى العربية من الألمانية والإنجليزية ، وهذايفسر الاختلاف بين جزء من نصنا العربى وبين الأصل ، هذا فيما عدا الرسالة فى مرض الديابيطس التى استنسختا نصها فى الباب الخامس من هذا المؤلف من صورة شمسية نشرها ثيس .

والمجموعة مكونة من إحدى عشرة مخطوطة ، هذا هو تفصيلها :

١ - الاوراق التى عملتها على كتاب محمد بن عمرو المعروف بابن الخطيب الريى الذى عمله على بعض الجزء الاول من كتاب القانون وهو الملقب بالكتاب :

« بسملة ، أما بعد السلام عليك أيها الولد السعيد الرشيد أمتعنى الله ببقائك وأسعفنى بإسعادك وإرشادك . فإنى أحمد إليك الله الذى لا إله إلا هو . . . » وتنتهى هكذا : « فإن جزاء الشيء قد يسمى باسمه كما قاله سبحانه وتعالى « ومكروا ومكر الله » « وجزاء سيئة سيئة مثلها » والله سبحانه ، يغفر الزلة ،

ويستر الهفوة ، ويهب التوبة ، ويقبل الإنابة بمنّه وجوده . وضعت هذه الرسالة في حلب سنة ٦١٣ لرشيد الدين علي بن خليفة »[1] وكتب في آخرها : « وقد سيرتها إليك في مسودتها » . والمهدى إليه هو عمّ ابن أبي أصيبعة الذي قرأ أرسطو على عبد اللطيف . وقد ذكر ابن أبي أصيبعة هذه الرسالة وإهداءها .

وتحوى الرسالة نقدا شديدا لتعليق على كليات القانون لابن سينا وضعه ابن خطيب – وهو فخر الدين الرازى (غير الــرازى الطبيب) – وحمد المؤلف الله على عــدم متابعة الــرازى تعليقــاته إلى أبعد من (النبضــس) ، وقال إنه اطلع عليها ووجدها أجمل دليل على انحطاط مستوى معاصريه العلمى إذ أنهم كانوا معجبين بها ، ثم أضاف أن نسخة من الرسالة اختلطت صفحاتها وقرئت دون أن يدرى قارئوها عدم تسلسلها ، وأنه كان ينوى قراءتها كاملة ، وتسجيل بعض الملاحظات عليها ، غير أنه سئمها فتركها ولم يعد إليها ، إلى أن طلــب اليه تلميذه الاطلاع على هذه الملاحظات ، فأرسل اليه هذه المسّودة . وأن نقده مفيد لأنه يبين للقارئ أن بعض معاصرى عبد اللطيف لم يتقبــلوا مثل هذه الأقوال . وأتم نقده مشيرا إلى أن ابن سينا – مع عيوبه – كان أفضل من الرازى ، ومؤكدا إعجابه بالقدامى : أرسطو والفارابي في الفلسفة ، وجالينوس في الطب .

ب – قول لعبد اللطيف بن يوسف على حال ابن الخطيب الريى فى تفسير سورة الاخلاص :

« بسملة ، قال عبد اللطيف بن يوسف : سألتنى أيدك الله بتوفيقه وأكرمك بتأييده أن ألخص لك حال ابن الخطيب الريّى وما لهج الناس بكتبه أمخطئون في ذلك أم مصيبون » . وقد كان جواب عبد اللطيف : « إن كتب الرازى تزخر بالأخطاء ، وإن مؤلفها لم يكن على علم دقيق . واكتفى بإثارة مسائل سفسطائية ، وأنه ســبق أن دلّ في رســالته على كتاب الرازى في الــكليات على جهله المصطلحات الطبية ، وإنه كان من الأفضل لو أن الرازى ترك القرآن وحاله ،

---

(١) وليس رشيد بن الفارس أبو حليقة كما زعم مايرهوف (١٥) .

وبعد هدمه تفسير الرازى لسورة الإخلاص انتهى بأنه لافائدة تجنى من قراءة تفسير السورتين الأخيرتين اللتين تناولهما المؤلف : «وقد رأيت أن أقطع معه الـكلام وآخذ في غيره من المهام ، وبالله أعتمد وإياه أستغفر مما اقترف » .

جـ ــ عن ماهية المكان بحسب راي ابن الهيثم :

« . . . غرضى في هذه المقـالة أن أبحث عن ماهية المـكان بحسب رأى ابن الهيثم ، وهذا الرجل فاضل في العلوم الرياضية ، واسع الدسيعة في أنواعها ، طويل الباع في علم الهيئة وعلم المناظر ، وهو من أهل مصر معاصر ابن رضوان الطبيب » . يقول عبد اللطيف إنه برهن على صحة رأى أرسطو في ماهية المكان في كتاباته في المنطق وعلى خطأ الآراء المخالفة . ولـكنه اطلـع على رأى ابن الهيثم بأن المكان[1] هو « البعدالفارغ » ووجد ــ لما اتسم به ابن الهيثم من الفضل والعلم ــ أنه ينبغى له انتقاد رأيه في مؤلف خاص . فذكر نص ابن الهيثم وأجاب عليه نبذة نبذة ، وآخر الرسالة : « وكانت الأرض تقف في الهواء والنار تحرق الأرض والماء وكانت نسبة الأسطقسات إلى المكان نسبة المائعات إلى الكأس . . . »

د ــ مقالة فى المزاج :

« . . . الاسطقسّات هى الأجسام الأولى التى ليس بعضها أقدم من بعض ، ومنها يتاون (؟ يتكون) جميـع الموجودات الـكيانية وقد تبين في كتاب الـكون والفساد de gener. et corr. أنها أربعة لا غير . تناولت الرسالة تمازج الأركان في المواد المركبة .

هـ ــ كتاب النصيحتين من عبد الله بن يوسف الى الناس كافة :

وهى أهم رسالة في هذه المجموعة ، تبرز طبيعة البغـدادى ، وذكاءه ، وشخصيته الطاغية ، وأسلوبه اللاذع ، وإن كان تحـيزه يؤدى إلى تعبيرات وأحكام لا تستساغ . ولبّ الرسالتين هو هجوم على الادعاء الكاذب للعلم ،

---

(١) ان التعريف الأرسطالى الصرف لمكان هو أن المكان (هو الحد اللامتحرك المباشر للحاوى) وعند فلاسفة المسلمين انه (السطح الباطن من الجرم الحاوى المماس لسطح الظاهر للجسم المحتوى (١٦) .

الادعاء الذى هو أسوأ من الجهل . وهى مقسمة إلى شقّين ، الأول موجّه إلى الأطباء (لخلاص الأبدان من السقم) ، والثانى إلى الفلاسفة (لخلاص النفوس من آلام الجهل إلى سلامة المعرفة) .

وقد عرض عبد اللطيف لما ورد في كتابات أبقراط وجالينوس ضد الأطباء غير الصالحين واقتبس نبذا مطولة من كتاب امتحان الأطباء لجالينوس . وقال إن القدامى ، وإن أخذ بعضهم بمبادئ غير صحيحة إلا أن هذه المبادئ كانت علمية ، هذا في حين أن أطباء عصره اكتفوا بالتخمين ، واللوم في هذا يقع على الأمراء والمرضى الذين يعيرون مأكلهم وأموالهم وخيولهم عناية فائقة ، في حين أنهم لا يتخذون الحيطة فيما يخص أطباءهم . ثم قال إن السلطات في القسطنطينية كانت تراقب مزاولة الطب وتمتحن الأطباء وتفرض عليهم قسم أبقراط ، وإن مثل هذا كان جاريا بالقاهرة ودمشق وبغداد، إلا أن الفوضى عمّت حلب ، وانهال بالسب على أحد أطبائها ، لم يذكره بالاسم ، ولكن كان واضحا أنه إنما عرض لشيخ مغربى ادعى الإسلام وهو يهودى ، شيخ من أقرب التلاميذ إلى ابن ميمون (وكان يهوديا) ، ومن أقرب المقربين إلى القفطى ،اسمه أبو الحجاج بن يحيى بن شمعون، الذى تسبب - تبعا لقوله — في موت الملك الظاهر غازى بن يوسف — لعدم تطبيق علاج كان أوصى به طبيب آخر ، خشية أن يكتسب ذلك الطبيب شهرة .

وفي تاريخ الطب قال: ولعله لخص هنا ما جاء في مؤلفه «مقالة في البادئ بصناعة الطب» الذى ذكره ابن أبى أصيبعة ولكنه لم يصل الينا ، إن الطب ظهر عندما احتاج الإنسان إليه ،وإن الله عنى بإيجاد من يبعثه جديدا إذا ماتأخرت حاله، فهكذا أعاد أبقراط الطب إلى ما كان عليه في عهد جده أسقلابيادس بعد انحطاطه ، ثم بُعث جالينوس لإحيائه مرة أخرى ،

ثم أبدى رأيه في أن آخر طبيب مسلم جدير بهذا اللقب هو أبوجعفر أحمد ابن محمد بن أبى الأشعث المتوفّى ٣٦٠–٩٧٠ (ولم يذكر إن كان هو ،البغدادى، يعتقد أنه آخر رسل الطب) . أما معاصروه فإنهم في رأيه (ببغاوات) يعيدون

أجزاء من (القانون) دون فهمه . وأتم بنصحه الأطباء دراسة أبقراط وجالينوس وهو — في رأيه — فاق ابن سينا ، أما إذا أراد الطالب قراءة مصنف محدث لمعرفة كيف لخص مؤلفه كتب هذا الطبيب ، فلا غبار على ذلك ، وأفضل هذه المؤلفات (كناش) سرابيون .

وكذلك ردّ تدهور الفلسفة إلى إهمال دراسة القدامى الذين استعملت كتبهم للفّ العقاقير ولتجليد الكتب. ثم قارن أرسطو والفارابي بابن سينا، وأكد أفضلية الأول والثاني على الثالث ، واختصر فلسفة أفلاطون كما عرضت في (تحصيل السعادة) للفارابي، وفي (الجمهورية) و (طماوس)و (القوانين) ، فقال إن أحاديث أفلاطون منظمة حسب ترتيب يجعل منها بحثا منظما متدرجا يتناول مشاكل الفلسفة كافة ، وفعل مثل هذا بفلسفة أرسطو كما عُرِضت في المؤلف ذاته للفارابي، فانتهى إلى أنهما لم يتركا شيئا لغيرهما وأن الفلسفة بعدهما لا تحتاج إلى تحسين بل لا يمكن تحسينها .

ثم روى كيف أنه أعجب في أول حياته بابن سينا وبمؤلفيه (النجاة) و(الشفاء) ، ثم كيف انصرف عنه إلى القدامى تحت تأثير أبي القاسم الشاعرى بالقاهرة، وأسف لضياع وقته في دراسة ابن سينا ، وانتقد كتاب (الشفاء) لقصور محتوياته ، وقلة ترتيبه ، وكثرة إعاداته، ونقص أقواله في المنطق ، ولجعله الفلسفة في متناول أى شخص،ولأن ابن سينا كان يحتسى الخمر ويؤلف وهو تحت تأثيره ، فى حين أن الفلسفة يجب ألاّ تدرس إلاّ لمن قوى إيمانه ، ودرس الفقه ، وكان على قدر كبير من الخلق والذكاء ، لأن الفلسفة والدين لا يختلفان فالدين يعلم للصبيان والفلسفة لنخبة البالغين ، وردّ هجوم الناس عليه (البغدادى) لعدم مشاركته إياهم تحللهم الخلقى، ولعدم إيمانه بالإكسير ، ولرأيه في ابن سينا ، مضيفا أن كل هذا لن يمنعه من الجهر برأيه صراحة .

ومن أهم ما جاء في النصيحة الثانية ترجمة ذاتية ، هى أقصر من تلك التى نقل ابن أبى أصيبعة ترجمته له ، وإن كانت تختلف عنها في شبهها بالوصية الروحانية ، فهى تتعرض لحياته الظاهرة أقل من تعرضها لتطوره الفكرى

والعلمي، وقد حاول فيها توضيح سيرته بمقارنتها بحياة أفلاطون وأرسطو وابن سينا، وهو يبدو في كل تأريخ وضعه عن نفسه — وقد وضع ثلاثة منها — وكأنه يقصد منه عظة ودرسا للقارئ، فيدخل في كل منها تفاصيل جديدة، وتغييرات تختلف حسب الجمهور الذى يبتغي الوصول إليه، وقد وجه الترجمة التي نحن بصددها إلى صديق له بالعبارة الآتية: «وقد شرحت لك أيها الحبيب الخلّ وصيتي، وعليّ القول وعليك القبول».

و — رسالة فى مجادلة الحكيمين الكيميائي والنظرى:

وهو جدل ينتهى بنصر الفيلسوف النظرى، وهولم يذكر اسمى المتجادلين ولكن عبارة وردت في الرسالة تشير إلى أن المناظرة كانت واقعية غير منتحلة وهى: «المجادلة التى جرت بين الرجلين المبرّزين في صناعتهما الكيميائى والحكيم النظرى وهما كهلان عاقلان بالفطرة.. قد اجتمعت فيهما الشرائط التى قلّما اجتمعت فيمتناظرين».

قال عبد اللطيف إن الكيمياء لم يرد ذكرها في كتب فيثاغورس أوأفلاطون أو أرسطو أو جالينوس أو فيلوبونوس أو أوائل أطباء العرب أمثال حنين بن إسحق أو أبى الفرج بن طيب، وإن مؤسّس هذا العلم الكاذب هو جابر بن حيان الذى خدع بعض العلماء أمثال أبى بكر الرازى، ثم ذكر آراء الفارابى وابن سينا.. أما شهاب الدين السهروردى فوضعه بين الصبيان الأغبياء، وعلى العكس فإن ابن العربى كان أحكم أهل الكيمياء إذ أنه ادعى معرفة اسم الله الأكبر وأسرار الحروف وهذا ادعاء يصعب التحقق من صحته.

ز — رسالة فى المعادن وابطال الكيمياء:

مبدؤها: «إن المعادن كلها دهنات تنعقد، ففيها المائع جدا كالنفط الأبيض..» ويميز عبد اللطيف في هذه الرسالة بين عمليات الكيميا الصحيحة وهى إحراقات وتكليسات وتليينات وتصليبات.. فيها فوائد ترجع على المدينة.. الخ» وبين ما عداها وهو «ادعاءات وتمويه واختراع». وحكى أنه بينما كان يقرأ هذه الرسالة وتلك التى سبقتها في أرزنجان،

إذ بكيميائىّ يدخل عليه ويطالب إليه خطابا إلى علاء الدين حاكم البلد ليحصل به على جسد عبد، أوجثة شخص محكوم عليه بالاعدام،ليستعين بها على تحضير الإكسير . ثم اعتذر عن طول الرسائل طالبا ألا ينسب اليــه التطويل وفرط التعصب قائلا إنه لو اجتمع ألف نفس مثله وأنفقوا أعمارهم في محو أثر الكيمياء لن يقدروا على محو يسير منها . وكيف لايعجزون عن ذلك ولجابر أربعة آلاف تصنيف ولمن جاء بعده أربعة أضعاف ذلك وهى مبثوثة في العالم بأسره وقد شحنت بها الخزائن » فان شربة واحدة لا تطهر أدناس العالم وإن فلاحا واحدا لا يقدر على أن يستأصل دغل ألف بستان إلا أن يكون نبيّــًا . . . ولكل أجل كتاب ولكل مرض بحران » .

وانتهى بقوله : « ولعل سبحانه وتعالى يهدى بكتابى ولو واحدا من الناس فلى ثوابه ،ومن غريب قول هذا المغربى (مدعى الصنعة) أن من لا يعتقد صحة هذه الصنعة فليس بمسلم . . . »

ح ـ فصول منتزعة من كلام الحكماء :

وهى رسالة تتناول أربع مسائل في المنطق وما وراء الطبيعة وحلّها . تبدأ بقوله : « إن الأمر الكلىّ الذى هو جنس ليس له وجود البتّة من خارج . . . » وتنتهى هكذا : « . . . وأما الجنس فلا وجود له إلا في فكر المفكر فقط فهو شبح[1] الموجودات كوجود الأشياء في المرآة وهو تابع لوجود الأشياء . . . »

والمسائل التى تعرض لها خاصة بالجنس، والفصـــل، والــكون بالقــوة being in potentia، والكون بالفعل in actu. وآخر جزء، وهو الخاص بالفرق بين الجنس والمادة ، مبنىّ على رسالة الإسكندر الأفروديسى في هذا الموضوع . وقد عبر شتّرن عن رأيه في أن بقية الرسالة كذلك مقتبسة من الاسكندر .

ط ـ رسالة للاسكندر فى الفصل خاصة وما هو (٢) :

إن هــذا المخطوط هو الجزء الوحيد من المجموعة الذى لم يكن لعبــد

(١) جاءت فى مقال ديتريشى (٣) « شبــح »
(٢) الفصل هو جزء من الماهية يميز النوع ، كتسمية (الناطق) للانسان (١٦) .

اللطيف شأن في تأليفه (شترن ١٤) لأنه نقله نقلا أمينا عن رسالـــة للإسكندر الأفروديسى ، وقد اعترف بهذا ، ثم إن الموضـــوع نفسه ورد مع رسالـــة أخرى مترجمة أيضا من الإسكندر في مخطوط مودع بدمشق نشره الدكتـــور عبد الرحمن بدوى (في أرسطو عند العرب ١٩٤٧ صفحة ٢٩٠ ـــ ٣٠٨) .

إلا أن ترجمة نص دمشق قام بها أبو عثمان سعيد بن يعقوب وعنوانهـــا : مقالة الإسكندر الأفروديسى في (الفصول) ترجمة أبى عثمان سعيد بن يعقوب الدمشقى وفي حواشيها تعاليق لأبى عمرو الطرى عن أبى بشر متى بن يونس الفنائى رحمهم الله : في أن الفصول التى بها يقسّم جنس من الأجناس ليست واجبا ضرورة أن توجد في ذلك الجنس وحده الذى اياه تقسم، بل قد يمكن أن يقسّم بها أجناس أكثر من واحد ليس بعضها من نتائج بعض،وهذا الجزء من رسالة الإسكندر ليس له نظير في مخطوط بروسا . أما بقية مخطوط دمشق فإنه يتعرض لمسألة أخرى وهى : هل يجب أن يوضع الفصل تحت جنس واحد بعينه وهو ذلك الجنس الذى يحوى الجنس الذى إياه يقسم ذلك الفصل أوتحت جنس آخر غيره ، وهذا هو الجزء المقابل لنص مجموعة بروسا، إلا أنه مطوّل ومزوّد بتعليقات ، وقد رأينا ، بغية السماح للقارىء بتكوين رأى شخصىّ ، ولصعوبة الحصول على هذه النصوص ، نشر هذه المقالة كاملة في آخر هذا الباب وقد نقلناها نقلا عن مقالة ديتريش (١٣) .

ى ـ فصول طبية انتزعها عبد اللطيف بن يوسف (١٧) :

بدء : « الملح مع دهن الورد يتدلك به في الحمـــام فتذهب الحكة العارضة عن البلغم المالح » .

والعنوان كتب فيما بعد بيد غير التى كتبت المتن ، وقد أضيف كذلك بالخط الذى كتب به العنوان بعض الهوامش والتعليقات في وقت لاحق .

ويبدو النص مجموعة ثمار اقتطفها عبد اللطيف في خلال مطالعاته فسجّلها دون مراعاة لأى نظام أو أية علاقة بين الواحد والثلاثين عقارا المذكورة.والنبذ

قصيرة تفتقر إلى وصف للنبات ، وتذكر الطبائع كما بوبّها الإغريق (حار ، بارد ، جاف ، رطب) ثم درجة القوة ثم بعض فوائدها وأضرارها . وقد اختلف عبد اللطيف عن ديسقوريدس وجالينوس ومن تبعهما من العرب بأنه تجنب ذكر التطبيقات الكثيرة التي اعتاد هؤلاء ذكرها وخصّ بالذكر خواصّ قليلة ، مهملا الأخرى وإن كان على علم بها .

ويبدو أن عبد اللطيف أراد: إما سدّ ثغرات قابلته في خلال ممارسته للمهنة ، وإما التمهيد لوضع دستور علاجي مختصر (فارماكوبيا) لاستعمال المستشفيات أو لنفسه . وقد سبق أن ذكرنا أن عبد اللطيف كان – أول حياته – معجبا بابن سينا وأنه انفصل عنه مذهبيا فيما بعد ، وأنه عاد ووصف كلامه بأنه مخطىء ومفسد، غير أن هذا القول يبدو أنه في تعاليم ابن سينا الفلسفية وحسب ، إذ أننا نراه يقتبس من الشيخ الرئيس بكل حرية ، بل يحاكيه في اختصار الوصف وفي التركيز على الخواص والفاعلية . وهو لم يختلف عن الكثيرين ممن سبقوه أو عاصروه أمثال ديسقوريدس ، وعلي بن عيسى ، وابن البيطار ، وأبي هيل ، وابن سينا ، وابن ميمون ، اللهم إلا في الناحية التي أولاها كل منهم جلّ عنايته ، وهي إما الوصف الشكلي ، أو القوة ، أو طريقة التحضير ، أو المترادفات الخ . وهذا الاختلاف بين الكتاب إن دلّ على أمر فإنما يدل على أن العرب لم ينقلوا بدون تمييز كما قال البعض . والمخطوط يذكر النباتات التالية :

الملح ، الفلفل ، القرفة ، الزعفران ، الكمون ، الكزبرة ، الكراوية ، (الصفصاف) ، النرجس ، المرزنجوش ، السوسن ، الكركم ، الأمروسية ، الحنطة ، الشعير ، الدخن ، الحمص ، العدس ، الباقلة ، الأرز ، الماش ، اللوبياء ، الترمس ، الحلبة .

هـ – في المرض المسمى ديابيطس :

(انظر الباب الخامس من هذا المؤلف) .

ل ـ كتاب ذيل فصيح ثعلب :

نشره وعلق عليه الأستاذ محمد عبد المنعم خفاجي (١٨) وقال عنه : «وهو كتاب لغوى رائع خفيف الظلّ ، جميل العرض ، حسن الترتيب وهو مكمل لكتاب الفصيح نفسه ، ومتمم لمافيه» .

مستهله : « الحمد لله رب العالمين وصلواته على سيدنا محمد النبي الأمي وعلى آله الطاهرين » .

وبعد : فإنا مزمعون أن نثبت في هذه الأوراق من الألفاظ التي يتداولها الناس في مخاطباتهم وكتبهم ما يغلط فيه كثير من الكتاب فنخبر بالصواب فيه بتجنب ما عداه ، وينبغي لمن أراد الدخول في العلية أن يضم معرفة هذه الألفاظ إلى معرفة ما في (كتاب الفصيح لثعلب) بزياداته فإن اللحن يتولد في الأمم والنواحي بحسب العادات والسير ، وبالله التوفيق .

ومن أمثلة ما جاء بهذا المؤلف :

باب ما يضعه الناس في غير موضعه .

هَوَى الشيء هُوِيّاً بالضم : إذا صعد . وهَوَى هَوِيا بالفتح : إذا هبط .

يقال تَنَحّس النصارى : إذا تركوا أكل اللحم ولا يقال لهم ذلك إذا أكلوه . وقال ابن دريد وهو عربى معروف ، يقال تنحس وتوحّش إذا تجوع . قلت : العوام تقول تنهّس النصارى والمسلمون إذا أكلوا اللحم وأكثروا منه قبيل صومهم ووجهه ظاهر ، لأن العرب تقول : تنحس النصارى إذا تركوا اللحم والعامة تقول تنهسوا إذا أكلوه .

وأيام التنهيس. هى أيام في أواخر شعبان يُغْتَنَم فيها أكل اللحم في الهناء وهذا سائغ لأنه من النّهس وهو أكل اللحم بِشَرَه وخطف لأنهم يأكلون أكل مودع .

باب ما تغير العامة لفظه بحرف أو حركة . ونذكر على سبيل المثال :

تقول أمر هائل ولا تقول مهول، وهي السَّبَطانة ولا تقل دربطانة . وهي الجبُولاء بالجيم والمد ولا تقل الكبولة . والجبل الحيط والكبل القيد ، والمكاكيك جمع مكوك، فأما المكاكي فجمع مكّاء وهو طائر يمكو أي يصفر . والزرمانقة جبة صوف عبرانية معربة وهذا حديث مستفيض ولا يقال بالألف . وأفاض القوم في الحديث اندفعوا فيه . . .

حَدَبْدَبَى لعبة للصبيان،والعامة تجعل مكان الباء الأولى نونا ومكان الثانية لاما وهو خطأ ، قال الراجز :

• حدبدبى حدبدبى ياصبيان •
• ان بني فزارة بن ذُبيان •
• قد طرّقت ناقتهم بانسان •

وتقول للشاة والبعير يجترّ من الجرّ أي يجتذب الغذاء من جوفه فيعيد مضغه ولا يجوز بالشين ، ومنه حضر الناس كافة ولا تقل الكافة .

وما يطرد فيه لحنهم : قولهم في اسم الفاعل المعتل العين بغير همز وهو بالهمز فقط نحو القائم . والقائل والبائع . . فأما بايع فهو مبايع وقاول فهو مقاول فلا همز فيه .

وتقول جئت عنده ومن عنده وجئت اليه .

وتقول بعثت إليك غلاما وأرسلت إليك رسولا فيعدى الفعل بنفسه فإن قلت بعثت إليك بهدية وأرسلت بثوب ونحوه مما لا يتعدى بنفسه جازت تعديته بالباء لأن التقدير بعثت إليك إنسانا بهدية .

ومما جاء بالسين المهملة والعامة تقول بالشين :

... وتقول سجع الحمام إذا طرب ، وسجع الخطيب سجعا فهو ساجع ،

أما شجع بالشين المعجمة فمن الشجاعة . . .

ومما جاء بالذال المعجمة فيغيرونه بالدال . الجُرَذ والجمع جرذان لذكر الفأر ... والذقن .

ومما جاء بالدال المهملة فيغيرونه بالذال : الدعّار اللصوص الخبثاء .

ومما يشدد والعامة تخففه: عندى مائة ونيِّف . . . ولا يجوز نيف بالتخفيف والكسر .

ومما يخفف والعامة تشدده : . . . مَلَطْيَة وقسطنطينية بتخفيف الياء فيهن .

ومما جاء ساكنا والعامة تحركه : هي البَكْرة . . . وحَلْقة الحديد . . . . . والإبط .

ومما جاء محركا والعامة تسكنه . . . وهى الزُّهَرَة لهذا النجم ، ونُخَبَة القوم، والذبَّحة وجع في الحلق بالتحريك .

ومما يصحّف: تقول لمن تنسبه إلى الجهل والبلادة عليه لحية التيتل بثاء مثلثة ثم تاء : وهو الوعل المسن ولا تقله بتائين .

ومما جاء مكسورا والعامة تغيره : هو الشِّطرَنج بالكسْر كالجِرْدحل . . . والخِنْزير والقِنِّينَة .

ومما يكسر : . . . المِسْطرة . فأما المقلمة فهى بالفتح لأنها موضع الأقلام .

ومما يفتح والعامة تكسره أو تضمه هو الرَّيْحَان .

ومما جاء مضموما والعامة تغيره : هو المُشان . . وخُرطوم .

ومما جاء ممدودا والعامة تقصره : . . . : اللوبياء .

ومما يغير من الأفعال : . . . تقول هذا الشيء لا يساوى كذا أى لا يعادله ولم يسمع يسوى .

ومما تغلط فيه . . . وتقول ما يُعرضك لهذا الأمر ولا يجوز يعرضك بالضم والتشديد . . .

وما جاء على أفعل : تقول أروحت الجيفة وأعوزنى الشيء . . . وقد أفاق من علته . . .

نص رسالة الاسكندر

بسم الله الرحمن الرحيم

رسالة للإسكندر

في الفصل خاصّة وما هو

١ ـ قال : إنّا نريد أن نبحث عن الفصل ونطلبه طلبا مستقصى ، فنقول : تحت أيّ الأجناس ينبغى لنا أن نضع الفصل أتحت الجنس الذى يُفصّل بالفصل أم تحت جنس آخر هو جنس لذلك الجنس الذى يُفصّل بالفصل ؟ .

٢ ـ فإن قال قائل : إنّ الفصل تحت ذلك الجنس الذى انفصل بالفصل ، قلنا : إنّه إن كان الفصل تحت جنس آخر غير الجنس الذى انفصل بالفصل لم تكن الأشياء كلّها عشرة بل تكون أحد عشر ، فإن كان ذلك كذلك كان أيضا للجنس الحادى عشر جنس آخر ، وهذا يصير إلى ما لا نهاية وهو غير ممكن .

٣ ـ فإن قال : إنّ الفصل ليس بجنس غير الأجناس العشرة لكنّه تحت أحد الأجناس العشرة ، قلنا له : إن كانت كذلك فإمّا أن يكون تحت الكميّة أو

تحت الـكيفيّة أو تحت سائر النعوت ، فإن كان هذا على هذا رجعنا أيضا فقلنا : إما أن تكون فصول الـكميّة تحت الـكميّة وفصول الكيفيّة تحت الـكيفيّة وإمّا أن تكون تحت جنس آخر كما قلنا آنفا، كقولنا : إن فصول الـكيفيّة تحت الكميّة وفصول الكميّة تحت الكيفيـة، فإن كانت فصول الكميّة تحت الكيفيّة فتحت أيّ الأجناس تكون إذًا فصول الكيفيّة ؟ وكذلك إن كانت فصول الكيفيّة تحت الكميّة فتحت أيّ الأجناس إذًا تكون فصول الـكمّيّة ؟ فإنّ الجواب في ذلك عسر جدّا غير سهل ولا هيّن .

٤ — فإن قال قائل : إنّ فصول الـكمّيّة تحت الكمية وفصول الكيفيّة تحت الـكيفيّة ، قلنا : فلمَ صارت فصول هذَيْن الجنسين ، أعني فصول الكمّيّة وفصول الـكيفيّة ، مجانسة للصور المنفصلة من الجنس بها ، أعني الفصول ؟ أقول : إنّها فصول وصور معـًا ولم تكن فصول سائر الأجناس على هذه الصفـة .

٥ — ونرجع فنقول أيضا : إنّه لا يمكن أن يكون الفصل تحت الجنس الذى انفصل به ، وذلك أنّه إن كانت الفصول المصوّرَة للصور تحت جنس تلك الصور كانت لا محالة الصور التي تفصّل الحيّ تحت الحيّ كانت هي أيضا حيوانا ، فإن كانت حيوانا كانت جواهر مركّبة من هيولى وصورة وكانت صور الحيّ لا محالة ، لأنّ الشيء القابل اسم الحيّ وحدّه إمّا أن يكون كلّيّا فيكون صورة الحيّ وإمّا أن يكون جزئيّا فيكون شخصا من الأشخاص للصور التي تحت الحيّ .

٦ — فإن كان ذلك كذلك وكان الفصل كلّيّا كان لا محالة صورة من الصور ، فإن كان الفصل صورة وكانت كلّ صورة من جنس وفصول كانت لامحالة للفصول فصول إذ كانت للفصول فصول أيضا ، وهذا يكون إلى ما لا نهاية وهذا محال غير ممكن البتّة .

٧ — فإن كان هذا غير ممكن فنرجع إلى المسألة فنحلّها حلاًّ محكما فنقول : إنّ الفصل ، إذا ما أُخذ بذاته ، لم يكن من هيولى وصورة لكنه صورة بلا

هيولى مصوّرة للصور الهيولانية ، ويحقّق ذلك الجنس فإنه طبيعة كلّيّة تعمّ أشياء كثيرة مختلفة الصور وإنّما يُستدلّ على خلاف الصور بعضها من بعض بالفصول وليس اختلاف الصور الهيولانيّة التى تحت جنس أحد بالهيولى الحامل لها ولا بالجنس العامّ المحيط بها بل يكون اختلافها بالصور الكائنة في الهيولى فقط ، وإنّما يكون معرفة اختلاف الصور بالفصول .

٨ — فإن كان هذا على ما وصفنا ولم يكن الفصل هيولانيّا رجعنا فقلنا : إنّه إذا ما كان الجنس دالاّ على طبيعة مركّبة من هيولى وصورة شبه الحيّ لم يكن هذا الفصل تحت جنسه لأنه لا يقبل اسم جنسه وحدّه شبه المتصل ، فإنّه فصل من فصول الكميّة وهو كميّة أيضا ، أقول : إنّه فصل وصورة معـًا قابل لاسم الكميّة وحدّها شبه البياض فإنه فصل من فصول اللون وهو لون أيضا ، أقول : إنّه فصل وصورة للون قابل لاسم جنسه وحدّه .

٩ — ونقول أيضا بقول جامع : إنّ الصور التى لا هيولى لها فالفصول الدّالة عليها وليس بينها خلاف البتّة ، فلذلك صارت أجناسها تُنْعت بها نعتا مترادفا ، أعنى أنّها تعطيها الاسم والحدّ جميعا .

١٠ — فإذا كانت الفصول على ما ذكرنا ووضعنا رجعنا إلى المسألة فحللناها أيضا حلاّ بيّنا واضحا فقلنا : إنّ فصـــول الأجناس الأولى تحت أجناسهـــا وصورها ، فلذلك لا نجد لفصول الأجناس الأول فصولا أخر غير الصور لأنّ فصولها وصورها هي شيء واحد ، أقول : إنّ صورها هى فصولها وفصولها هى صورها ، فلذلك صارت هوية هذه الفصول تحت أجناسها اضطرارا ، فقد حدّ الحكيم هذه الفصول فقال : « إنّها هى التى لا تُتصوّر صورة أخرى » .

١١ — فأمّا فصول الأجناس الثانية المركّبة من هيولى وصورة ، أعنى الجواهر المركّبة شبه الحيوان ، فليست تحت أجناسها التى انفصلت بها ولا أنّها صور لها ، فلذلك قيل : إنّ الأجناس لا تُنْعت بصورها نعتا مترادفا اضطرارا ولا تعطيها الاسم والحدّ جميعا ، بل هى تحت الجنس الأوّل فإنّ ذلك الجنس يُنْعـــت

بالفصول الهيولانيّة وغير الهيولانيّة، فلذلك صارت فصول الحيّ جواهر ولم تكن حيوانا لأنّ الجوهر جنس الحيّ وهو حافظ للطبيعة في الأجناس المركّبة من هيولى وصورة وفي الأجناس المفردة المبسوطة ، أقول : في الجواهر الجرميّة وغير الجرميّة .

١٢ ــ فإن قال قائل : إنّ فصول الجواهر ليست بجواهر لأنّها لا تقبل الأضداد ، قلنا: إنّ قائل هذا القول لم يفهم قول الحكيم ، وذلك أنّ الجواهر الجزئيّة هي التي تقبل الأضداد ، وأمّا الأجناس والفصول والصور فإنّها لا تقبل الأضداد البتّة لأنّها كليّة عاميّة .

١٣ ــ فقد استبان الآن وصحّ ما الفصل وكيف هو في جميع الأجناس ، أمّا في الأجناس المبسوطة فهو صورة لها وتحتها لا تحت جنس آخر ، وأمّا في الأجناس الثانية المركّبة فهو غير الصورة وليس هو تحت جنس آخر ، أقول : تحت الجنس الأوّل الذى هو الجوهر ، بأقاويل فلسفية فائقة لا مردّ لها .

١٤ ــ تمّت الرسالة في الفصل للإسكندر، والحمد لله ربّ العالمين وصلّى الله على سيّدنا محمّد وآله الطيّبين الطاهرين .

الباب الثالث

كتاب الافادة والاعتبار

من مصنفات البغدادى الضخمة مؤلف في ثلاثة عشر فصلا عنوانه (أخبار مصر) كان يحوى فيما ضمه من معلومات تفاصيل دقيقة عن مقاييس فيضان النيل من وقت الهجرة إلى يومه ، ولم يصل إلينا شيء منه ، إلا أن البغدادى — لحسن الحظ — استخلص منه ما استند فيه على ملاحظاته الشخصية غير ما رُوِى له ، وجمعه في مؤلف مختصر أسماه (كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر) .

إن المخطوط الأصلى لهذا المؤلف المختصر موجود بالمكتبة البودلية بأكسفورد ، وقد عُرِف للغرب منذ القرن الثامن عشر الميلادى ، فقد استنسخه جوزيف وايت Joseph White في سنة ١٧٨٢ م ، ونشره في توبنجن بألمانيا في سنة ١٧٨٩م (١٩) ، ثم ترجمه إلى اللاتينية ونشره باللغتين اللاتينية والعربية في سنة ١٨٠٠ (٢٠) ، وهى ترجمة كان ابتدأها بوكوك Pocock نجل بوكوك الذى استحضر المخطوط إلى انجلترا ، ثم كملها من بعده (وايت) White ، كما أن (فاهل) Wahl ترجمه إلى الألمانية في سنة ١٧٩٠ (٢١) .

غير أن أفضل التراجم وضعها المستشرق الفرنسى (سلفستر دى ساسى سنة ١٨١٠ (٢٢) ، وهى ترجمة على جانب وافر من المعرفة إذ أنها تزخر بالهوامش الفنية والتعليقات العلمية .

ولم يترجم المؤلف إلى الإنجليزية إلا في سنة ١٩٦٤ (٢) ، وتمت هذه الترجمة في جو يمكن وصفه إما بالروحانية المريبة أو بالشعوذة الصارخة ، حسب اتجاه

فكر القارىء ، فقد سرد أصحاب هذه الترجمة رواية مثيرة ، قد تلقى ضـوءاً عجيبا – إن لم يكن جديدا – على ما قد يكون البغدادى ناله من صيت تعدى المكان والزمان . وإليك ترجمة هذه الرواية كما جاءت في مقدمة مؤلفهـم « المفتاح الشرقي » "The Eastern Key" :

« تؤمن غالبية الأديان بخلود الروح بعد فناء الجسد البالى ، ولا يستغرب اكتفاء روح – في رفعة روح عبد اللطيف – بدوام البقاء فحسب ، بل أن تظل عاكفة على علاج البشر وتعليمهم وتخفيف آلامهم ، إن عبد اللطيف أستاذ كونىّ يقود قوما من العاملين ويرشدهم ، سواء من يعيش منهم عـلى سطح الأرض أو من يحوم حولها . ومن هؤلاء العاملين جمع لا حصر له يلتمس لروحه البركات ، ويعرفها باسم روح الطبيب الفارسى (مع أن عبد اللطيف لم يكن فارسيا ، لا بنشأته ، ولا بلسانه ، ولا بسكنه ، ولا بوراثته) ، ومنهـم من بدأ يعرف حقيقتها . ولقد جرى أول اجتماعنا (أى المؤلفين) إلى عبداللطيف في شهر أغسطس ١٩٥٧ ، عندما تحدث إلى زوجى وإلىّ في لندن عن طريق الوسيطة رِني ولش Ray Welch ، ومنذ هذا التاريـخ جرت لنا مكالمات طويلة بوساطة هذه السيدة والسيد جيم هتشنجز Jim Hutchings ، ولم يكن غريبا أن يطلب عبداللطيف إلى زوجى ، في سنة ١٩٦٠ ، تصوير منسوخ (كتاب الإفادة (الموجود بالمكتبة البودلية) ليهدى نسخة منه إلى المتحف البريطانى حيث تتسع لجمهور أوسع فرصة الاطلاع عليه . ووعدنا عبد اللطيف بالتمهيد لهذا الطلب مضيفا أنه سيبعث إلينا مترجما للـكتاب من بغداد . . وبعد التغلب على بعض الصعوبات ، التقط زوجى صورة شمسية للمخطوط . . وكـان الواجب الثانى المفروض علينا هو نقل المؤلف إلى الإنجليزية ، وفي فبراير سنة ١٩٦١ أرسلت لنا روح عبد اللطيف ، وفاء لوعدها ، مترجما في شخص سيد عراقي من بغداد هو القاضى حافظ زند ، وكان هذا عن طريق السيدة ولسون ، التى قدمت المترجم إلينا من لدن مواطنه عبداللطيف البغدادى . . . وقد خصص لنا السيد حافظ قسطا وافرا من وقته حتى انتهينا من ترجمة المخطوط . فكان عبد اللطيف المفتاح الذى بعث هذا المؤلف إلى حياة جديدة بالإنجليزية » .

وختم المؤلفون هذه المقدمة الغريبة بقولهم إن عبد اللطيف كان يحب أرض مصر حبا جما، وإن كتابه – الذى شاع صيته بسبب تقديمه صورة لمصر صادقة وفريدة في عهد لم يزر فيه هذه الأرض من الأوروبيين إلا النـــزر اليسير – إن هذا الـــكتاب يهيء للقارىء المميز التواؤم التام مع حكمة هذا المعلم الملهم

وفي رأينا أن رفع عبد اللطيف إلى مستوى قواد الفكر الـــكونيين أمر يدعو إلى التعجب والتساؤل ، فإننا ، بحكم ستار السرية الـــكثيفة التى اعتـــــاد « المتصلون بعالم الروح » إسداله على طقوسهم ، عاجزون عن تقدير جديـــة إيمانهم به ، أوسعة نفوذ هذا الإيمان عليهم ، هذا إن وجد له أى نفوذ ، أهى مسرحية تجارية لترويـــج المؤلف ، يشارك في مسئوليتها إما الوسيطـــــان أو المترجمان ، إن لم يشتركوا فيها جميعا ، أم ترى استمر عبد اللطيف بالانشغال بالعلوم السرية بعد أن ادعى الإقلاع عنها ودأب في النصف الثانى من حياته على وصف ممارسيها بالتفاهة والشعوذة ؟ ترى هل أسس مدرسة من المريديـــن أحيوا ذكراه سبعة قرون بعد وفاته وأضافوا إلى سيرته من مخيلتهم ما رفعه في نظرهم إلى ما فوق الطبيعة ؟ إن هذه الناحية لم يعرض لها مؤرخه ابن أبى أصيبعة البتة ، ولا ندرى منها سوى أنه شغف ردحة بالصنعة وهى أقرب ما جاء في ترجمته شبيها بهذه « العلوم السرية » .

كتاب الإفادة والاعتبار في الأمور المشاهدة والحوادث المعاينة بأرض مصر

بعد البسملة ، استهل البغدادى هذا المؤلف الذى وصفه فيليب حتى الأستـــاذ بجامعة برنستون بالولايات المتحدة بأنه من أهم المؤلفات التوبوغرافية عن مصر ، استهله ببيان قصده من وضعه ، فقال :

« . . . فإنى لما أنهيت كتابى في أخبار مصر المشتمل على ثلاثة عشر فصـــلا رأيت أن أفرد معه الحوادث الحاضرة والآثار البادية المشاهدة ، إذ كانت أصدق خبرا وأعجب أثرا وأن ما عداها قد يوجد بعضه أو كله في كتب من سلـــف مجتمعا أو مفترقا فألفت ذلك في فصلين جردتهما وجعلتهما مقالتين في هذا الكتاب وهذا حتى « يخف إنهاؤه ويلطف موقعه عند عرضه على صاحب الأمر وإمام

العصر . . . ومفترض الطاعة بموجب شريعة الإسلام خليفة الله في أرضه ومنتهى مقرّ وحيه والقيم على العالم بإمضاء أمر الله تعالى . . سيدنا ومولانا الإمام الناصر لدين الله أمير المؤمنين (وهو أبو العباس أحمد الناصر لدين الله الذى تولى الخلافة سبعا وأربعين سنة أولا ها سنة ٥٧٥ هـ) (١١٨٠م) .

هذا المؤلف اذن مستخلص من كتاب أوسع ، وهو مبنى على مشاهدات شخصية . وإننا ، إذ نأسف لضياع الأصل الأوسع ، لا يسعنا إلا الإعجاب بروحه العلمية التى أرادت اختيار ما شاهده المؤلف بنفسه دون المبالاة بما وصل إلى مسامعه . ولا يسعنا أيضا إلا المقارنة بما فعله الرازى عندما جمع (الحاوى) كل المعلومات والأقاويل الشائعة ، ثم وضع نخبة خبرته في مؤلفات أخرى ، مثل (الفصول) و(المشاهدات) . والجديد في هذا الاتجاه هوتفضيل الخبرة على مجرد الاطلاع ، في وقت كان يقاس فيه صدق الأخبار بشهرة راويها أو بقدم تصنيفها فحسب .

ويقع المؤلف في مقالتين ، والمقالة الأولى مقسمة إلى ستة فصول ، أولها (في خواص مصر العامة) يتناول جغرافية سطح مصر ، فيصفها بأنها واد يكتنفه جبلان ينساب النيل بينهما ، ويقترب الجبلان في إسنا ويبتعدان في الفسطاط حيث ينفرج الوادى ، أما النيل فقد قال إن منبعه في جبال القمر وراء خط الاستواء بإحدى عشرة درجة على زعم البعض [١] ، ويدخل النيل بين الجبلين في أسوان وهى مبدأ أرض مصر [٢] ، وتقع أسوان على خط عرض اثنتين وعشرين

---

(١) أحسن البغدادى فى قوله (على زعم البعض) ، فان أبعد أصول النيل جنوبا قمة لوفيرونزا التى تقع على ثلاث درجات وخمسين دقيقة جنوب خط الاستواء . أما جبال القمر وهى جبال الرويزورى فهى تقدير حسن لأصل النهر ، وهو إن كان لم يوفق إلى تحديد المنابع بدقة تامة ، إلا أن تقديره دقيق نسبيا ولا سيما فى وقت لم تكتشف فيه منابع النهر .

(٢) دخلت الجيوش الاسلامية دنجلا سنة ٦٥٢ م وأجبرت ملكها على دفع الجزية ، ولكن مملكة دنجلا ظلت مسيحية ومستقلة حتى اقتحمت جيوش المماليك النوبة فى القرن الرابع عشر الميلادى ، أى بعد وصف البغدادى بقرنين .

درجة ، وخط عرض دمياط وهى أقصى حـد لمصر شمالا يقع على إحـدى وثلاثين درجة[1] ، فتكون مسافة النيل على طول مستقيم ثلاثا وأربعين درجة أى تسعمائة فرسخ (٢,٩٢٥ ميلا) ، أما طوله الحقيقى فأكثر[2] .

ثم وصف البغدادى الفيضان وعملية فتح الترع في خلاله ، وتعجب من زيادة المياه عند نضوب سائر الأنهار (أى في الصيف)، فنسبه إلى سببه الحقيقى وهو هطول الأمطار في الإقليم الأول والثانى في خلال هذا الفصل . وقد ترجم حافظ وفيديان (الإقليم الأول والثانى) بالوجه القبلى والوجه البحرى ، وهذه الترجمة غير صحيحة ومناقضة لما يلى هذا مباشرة ، وهو أنه لا تقع في أرض مصر أمطار تستحق الذكر وأن خصب أرض مصر من الطين الذى يأتيها من السودان ويسمى إبليز ، وقد أخطأ المترجمان أيضا التعرف على معنى هذه اللفظة وظنّا أن حقيقة اللفظة هى (إبريز) فترجماها إلى (ذهب) ،مع وضوح قراءة اللفظة في المخطوط ، والإبليز هو طين مصر الذى يتركه النيل بعد انحساره عن الأرض[3] .

ثم علل زيادة خصب الصعيد على خصب الوجه البحـرى ، بزيادة ترسب الإبليز في الصعيد ، ووصول الماء في الوجه البحرى وقد راق وصفا .

---

(١) ترجمت ٣٢ درجة وثلث وتقع دمياط بالضبط على خط ٣٢ ً ٣١° وهو تقدير أقرب ما يكون للواقع ، ويبدو أن تقديره ورد ٣١° فى نسخة و ٣٣ ً ٣٣° فى نسخة أخرى .

(٢) الطول الحقيقى إلى مدينة رشيد ١٥٧ر٤ ميلا ، ولعله اختار دمياط ، تبعا للدكتورة دولت صادق ، لأن فرع دمياط أطول فروع النهر وقتذاك ، وهو بذلك يعتبر أكثر أجزاء النهر امتدادا إلى الشمال . (٢٣ب) .

(٣) احتار القدامى فى سبب زيادة مياه النيل فى فصل الصيف وذهب حكماء اليونان فى تفسيرها ثلاثة مذاهب مختلفة : أحدها أن الرياح الموسمية تعوق النهـر عن أن يصب فى البحر ، والثانى أن النهر يفيض من المحيط ، والثالث أن النيل يستمد ماءه من ذوبان الثلوج . والرأى الاول هو رأى (طاليس) الملطي Thales ، الثانى أثر من خيال الشعراء أتبعه بعض الكتاب والمؤرخين أمثال (هكاتيه) الملطى Haecateus ، والثالث يعزى إلى (اناكساجورس Anaxagoras ، والعجيب أن هيردوت قال عن الثالث ، وهو الرأى الصحيـح ، انه بعيد عن الصواب كل البعد ، ثم قدم تعليلا غامضا لا طائل تحته (أنظر « هردوت يتحدث عن مصر »، ترجمة محمد صقر خفاجة وشرح الدكتو أحمد بدوى ، دار القلم ، ١٩٦٦ ، القاهرة ، ص ٩٦) .

وبسبب صعود الفيضان في الصيف فإن الفصول متغيرة عن طبيعتها ، فإن الصيف والخريف – وخاصيتهما في سائر البلاد اليبس – تكثر فيهما الرطوبة في مصر ، أما استغراب البغدادى هذه الظاهرة فإنه طبيعى ، وهو من العراق والشام التى تختلف ظروفهما عن ظروف إفريقيا .

ثم ربط البغدادى – أسوة بأستاذه أبقراط – بين المناخ وأمزجة السكان وأمراضهم . فقال إن العفونة تسود في الشتاء والربيع ، وإن الأمراض الحادثة عن أخلاط صفراوية وبلغمية تغلب على أهل مصر ، وإنه قلما توجد أمراض صفراوية خالصة ، وله في هذا الصدد بعض الملاحظات ، مثلا : « يغلب في أهلها الترهل والكسل وشحوب اللون والنحافة في الشباب والبدانة بعد العشرين وإن المصريين أذكياء وأذهانهم متوقدة وحركاتهم خفيفة لحرارة بلادهم » . و « إن السمرة تغلب عليهم في الصعيد والبياض من فسطاط إلى دمياط » ، وهذه ملاحظات لا تأتى إلا من شخص سجل كل ما وقعت عليه عيناه .

وإلى ذلك قال إن الفأر الذى يتولد من الطين يتكاثر لشدة درجة الرطوبة ، أما العقارب فإنها تكثر في مدينة قوص (وهذه هى الحال حتى اليوم) . وكذلك البق والذباب والبراغيث فإنها تدوم زمنا طويلا .

وعزا اختيار المصريين القدماء لمنف ، والإغريق للإسكندرية ، عاصمتين لهما ، إلى بعدهما عن جبل المقطم ، لأن هذا الجبل يحجب الشمس ويمنع ريحا اسمها الصبا عما في لحفه . ثم وصف ريحا أخرى باردة تهب من الجنوب وتسمى المريس لمرورها على أرض مريس بالسودان .

الفصل الثانى : يفرد الفصل الثانى وعنوانه : فيما تختص فيه من النبات . نبذة لكل نبات شاهده : البامية وطريقة طهوها ، والملوخية وقال إنها كثيرة اللعابية[1] ، ونوعا من الخبازى يسمى ملوخية السودان أو الشوسندبا ، وذكر

---

(١) ترجم المؤلفان السالف ذكرهما هذه الكلمة فقالا إن معناها أن الملوخية تدر اللعاب ، والمقصود هنا أن الملوخية تحوى مادة لزجة كاللعاب ، فاللعابية شراب يتخذ من الأثمار =

أيضا طريقة طهوها ، واللبخ وقال إن أرسطاطا ليس ذكر أنها كانت سما قاتلا في فارس ثم أصبحت في مصر غذاء[1] ، والجميز والبلسان الذى لم يزرع منه في زمانه إلا سبعة أفدنة في عين شمس ، والقلقاس والموز وأنواعامن المحمضات كالأترج (الليمون) والليمون الحلو ، والقرظ وهو نوع من الأقاقيا (السنط) ، والنخل ، والذرة[2] ، والدخن ، والأفيون ، والفقوص ، والخيار ، والعبدلاوى المنسوب إلى عبد الله بن طاهر والى مصر عن المأمون ، والعجور وهو العبدلاوى حين يكون صغيرا أخضر ، والبطيخ الأخضر (وهو ما يسمى بالبطيخ في مصر حاليا) ، والفول ، والورد ، والياسمين الذى يؤخذ منه دهن الزنبق خاصة في دمياط ، والبنفسج ، والرمان ، أما السفرجل والتفاح فقد قال إنهما نادران في مصر .

تناول الفصل الثالث (فيما تختص به من الحيوانات) فن حضانة الفراريج بالزبل ، وساق المؤلف الحديث فيه بتطويل وتفصيل ، ثم عرض للحمير التى قال عنها إنها في مصر فارهة جدا وتركب بالسروج وتجرى مع الخيل والبغال النفيسة ولعلها تسبقها ، ومنها ما هو عال يختلط مع البغلات . يركبه رؤساء

= وقد قال ابن سينا فى المقالة الأولى من الفصل الرابع من الكتاب الأول من القانون : «الدواء اللعابى هو الذى من شأنه إذا نقع فى الماء أو فى جسم مائى تميزت منه أجزاء تخالط تلك الرطوبة ويحصل جوهر المجموع منها إلى اللزوجة مثل بزر القطونة والخطم .

(١) توجد أمثلة عدة من نباتات سامة فى حالها البرية أصبحت صالحة للغذاء بعد زراعتها ، مثل البطاطس ، وتذكرنا هذه النبذة بما قاله بلينيوس (١٥ : ١٣ : ٤٥) عن شجرة كانت تسمى (برسيا Persea) ، قال انها تشبه الخوخ وان الكتاب ذكروا أن هذه الشجرة كانت سامة ، تحدث آلاما مبرحة ، عندما كانت تزرع فى فارس ، ولكنها ، عندما أدخلت إلى مصر ، تسببت طبيعة التربة الغريبة فى ضياع خواصها السامة ، وقد اختلف المترجمون فى تعريف هذه الشجرة وقال بعضهم إنها اللبلاب .

(٢) ترجم مؤلفو (المفتاح الشرقى) لفظة ذرة إلى Maize ، أى الذرة الشامى (المسمى أيضا بالتركى وبالمورلى(وهو المسمى علميا Zea maize) ، مع العلم بأن هذا النبات لم يصل إلى العالم القديم من أمريكا إلا فى القرن السادس عشر الميلادى وكان مجهولا قبل هذا التاريخ. أما الذرة فى عصر عبد اللطيف البغدادى فهو الموصوف بالبلدى أو بذرة عويجة ، ويطلق عليه علماء النبات Sorgho Vulgare .

اليهود والنصارى[1] ، ومثل هذه الحمير يبلغ ثمن الواحد منها عشرين دينارا إلى أربعين . أما البقر فكانت في نظره عظيمة الخلق غزيرة اللبن . وتحدث عن الخيل ووصفها بأنها عتاق سابقة ، وقد يبلغ ثمن الواحدة منها أربعة آلاف دينار . أما البغال فإن التى أمها فرس هى الأفضل ، لأن الأم هى التى تعطى المادة[2] . ومما لفت نظره التماسيح وكبر حجمها وبخاصة في الصعيد الأعلى وفي الجنادل (الشلالات) حيث تكون كالدود كثرة ، والدلفن (الدرفيل) الذى يكثر قرب دمياط وتنيس[3] والأسقنقور وهو نوع من الورل الذى يستعمل لتقوية الباه ، وفرس البحر (سيد قشطة) الموجود بأسافل الأرض وخصوصا ببحر دمياط . وهذا الحيوان يحسن صيده السودانيون لتعودهم إياه ، وقد حدث أن عجز أهل البلاد عن قتل فرسين فاستدعوا نفرا من السودانيين فقتلوهما ، وعاين البغدادى إحداهما فوجد فاها تسع شاة كبيرة ، وفي مقدمها اثنى عشر نابا ، ستة من فوق وستة من أسفل ، المتطرفة منها نصف ذراع زايد ، ووجد أن الأنياب تتبعها أربعة صفوف من الأسنان على خطوط في طول الفم ، صفان في الأعلى وصفان في الأسفل ، وفي كل صف عشرة ، كل واحد منها في حجم البيضة .

أما أصناف السمك فقال إنها لا يمكن حصرها لأنه يجتمع فيما سمك النيل وسمك البحر الملح ، وذكر منها على سبيل المثال الرعاد ، وثعبان الماء ، والسرب التى زعم أنها تحدث لآكلها أحلاما ردية ، والترسة وقد يصل وزنها إلى أربعة قناطير ، والصدف ، وغيرها .

والفصل الرابع (في اقتصاص ما شوهد من آثارها القديمة) أطول فصول الكتاب ، حيث شمل ثمانى عشرة صفحة في حين أن أى فصل من الفصول

---

(١) كان الحاكم بأمر الله الفاطمى قد حرم على هؤلاء ركوب الخيل .

(٢) كان الاعتقاد سائدا بأن دور الذكر فى التلقيح هو مجرد تنبيه لتكاثر ونمو خلايا البيضة وأن مادة الجنين من الأم .

(٣) تنيس : هى (صا الحجر) فى شمال الدلتا بالقرب من المنزلة .

الأخرى لم يتعد اثنتى عشرة صفحة . وقد فسر هذا الطول إذ قال : «أما ما يوجد بمصر من الآثار القديمة فشيء لم أر ولم أسمع بمثله في غيرهـا » . والى ذلك فقد أضاف أنه قصر الوصف على أعجب ماشاهده . إن اهتمامه بالآثار في وقت لم تكن هذه الآثار المجيدة في أعين الحكام سوى محاجر لا تصلح إلا للاستغلال ، وفي نظر السكان سوى مأوى للعفاريت والأوثان لدليل آخر على طرافة تفكيره وصوابه ، وعلى قرب فكـره من الأفكـار الحديثة .

بدأ بالأهرام فقال إن الصغار منها هدمها في زمن صلاح الدين قراقـوش الخصيّ الرومي الذى تولى العمائر في هذا الوقت ، وبنى من حجارتها سـور مصر والقلعة والبثرين الموجودتين بهما وهما أيضا من العجائب ، وقال إن قناطر الجيزة بنيت من حجارة الأهرام الصغار وهذه القناطر أيضا من أعمال الجبارين . وأضاف أن من لابصيرة عنده تولى أمر القناطر فسدها ، رجاء أن تروى المياه المحبوسة الجيزة ، فكانت نتيجة السد أن قوة المياه زلزلت ثلاث قناطر منها دون أن تروى ما رجا أن يروى ، ثم وصف الأهرام الـكبار الثلاثة مطولا وأشار إلى تشبيه الشعراء للـكبيرين منها بنهدين تصاعدا من صدر الديار المصرية ، وأعرب عن إعجابه بالأذهان التى أشرفت على بنائها والملـكات الهندسية التى قامت بتصميمها لأنها أخرجتها مثلا يتحدث عن قومها وينطق عن علومهـم ويترجم عن سيرهم[1]

ومن مشاهداته الدقيقة التى تعين في تحديد تواريخ عمليات الهدم التى أصابت هذه البنايات ،أن الهرم الثالث مبنيّ من حجر الصوان ، وأن المخروط ينقطع في أعلى الهرم الـكبير عند سطح مربع مساحته عشرة أذرع في مثلها ، وأن الباب المؤدى إلى الغرف الداخلية ليس هو الباب الأصلى وإنما هو منقوب اتفاقا ، وأن المأمون هو الذى فتحه .

وقد حاول البغدادى دخول الهرم فأغمى عليه من هول المطلع فرجع . ثم

(١) هذا الحكم يناقض ما سبق أن قاله عن أهل هذه البلاد .

نقل بعض الأقاويل في تاريخ الأهرام وماهيتها وقال إنها مغطاة بكتابات بالقلم القديم المجهول[1] ، وفي هدم الهرم قال إن الملك العزيز عثمان بن يوسف (٥٦٧ – ٥٩٥ هـ / ١١٧٢ – ١١٩٨ م) سوّل له جهلة من أصحابه أن يهدمها فبدأ بالصغير الأحمر[2] ولكن قوى المكلفين بهذا العمل خارت فكفوا ولم ينالوا بغيتهم ، بل شوّهوا الهرم وأبانوا عن عجزهم ، وكان ذلك في سنة ٥٩٣هـ ، وقد أقسم له مقدم الحجارين أنه لو بذل له آلاف الدنانير لعجز عن رد حجر واحد من الهرم إلى مكانه .

ثم جاء وصف أبي الهول ولم يكن ظاهرا منه سوى الرأس والعنق[3] وقد سأله بعض الفضلاء ما أعجب ما رأى فأجاب : تناسب أجزاء وجهه كالأنف والعين والأذن كما تصنع الطبيعة[4] .

ومن ثم انتقل إلى عين شمس ومعابدها وأصنامها الهائلة والمسلتين الكبيرتين (اللتين نقلت إحداهما إلى لندن والأخرى إلى نيويورك) ويبدو أن رأسيهما لبستا قلنسوتين من النحاس ، ومسالّ كثيرة أخرى قامت حولهما ، وقد أعجبته برابي[5] الصعيد ، وقال إنها من الشهرة بحيث تغني عن الإطالة في الوصف . وفي الاسكندرية وصف عمود السواري وأكثر من أربعمائة عمود مكسرة هدمها (قراجا) الوالي عن يوسف بن أيوب وألقاها بشاطىء البحر ليكسر قوة الموج ، ووصف هذا العمل بعبث الولدان ، وقد رأى حول عمود السواري بقايا أعمدة رجح أنها كانت مسقوفة وأنها كانت الرواق الذي درس فيه أرسطاطاليس ، والمكتبة التي أحرقها عمرو بن العاص بإذن عمر رضي الله عنه[6] .

---

(١) هو الخط الهيروغليفي ولم يقرأ إلا في أول القرن التاسع عشر .

(٢) الهرم الصغير هو هرم (منقرع) وما يزال مغطى بحجر الصوان الأحمر جزئيا .

(٣) لم تكشف بقية جسم أبي الهول إلا حديثا بعد إزالة الرمال التي غطته .

(٤) كان الأنف سليما إذن في هذا الوقت ، ولم يعرب البغدادي عن اعتراضه على تمثيل الجسم البشري .

(٥) جمع بربا ، وهي لفظة فرعونية الأصل ومعناها المعبد وما تزال مستعملة في الصعيد .

(٦) راجت حول حريق مكتبة الاسكندرية شائعات ومناقشات كثيرة ولا نعرف الحقيقة معرفة اليقين . والأغلب أن المكتبة أحرقت مرتين ، أول مرة في عهد يوليوس قيصر —

يتبـــع هذا وصف لمدينة منف ، وتاريخها ، والتماثيل الضخمة التى تزدان بها ، ودقة نحتها ، وآثارها التى قال عنها إنها تفوت فهم الفطن المتأمل ويعجز عن وصفها أبلغ لسان ، مع قدم عهدها وتداول الـكوارث عليها ومحو الأمم لآثارها . وقد علق على عبادة هذه الأصنام التى حرمها الأنبياء فقال : « ولما كان النصارى معظمهم وجمهورهم أقباط وصابئة نزعوا إلى الأصل ومالوا إلى سنة آبائهم القديمة في اتخاذ التصـــاوير في . . . هياكل عباداتهم وبالغوا في ذلك حتى تصوروا إلههم والملائكة حولهم بزعمهم ، وجميع ذلك لبقايا فيهم من سنن أوائلهم وإن كان الأوائل يكبرون الإله أن يدخل تحت إدراك عقلى أو حسى فضلا عن تصوير ، وإنما سهل ، على النصارى ذلك . . . اعتقادهم الإلهية لبشر .

وفي هذه النبذة عن الآثار يعجبنا تأمله فيها ، واحترامه لمعانيها ، ورده الحاضر إلى الماضى ، ومحاولته تفهم عوائد الناس إذا اختلفت عن عوائده والبحث عن أسبابها . وعموما عدم توقفه عند سطح الأمور . وقد وجد علل مراعاة الملوك إبقاء هذه الآثار من العبث بها وإن كانوا أعداء لأربابها منها ، ومن هذا أنهـــم قصدوا إبقاءها على شكل تاريخ يدلنا على الأحقاب . أو لتكون شاهدة للكتب المنزلة إذ أن القرآن الـــكريم ذكرها وذكر أهلها ، أو مذكرة بالمصير ومنبهة على المآل ، أو دليلا على شيء من أحوال السلف وعلومهم .

وتحسر البغدادى على انصراف معاصريه إلى شيء عدوه أجل شيء في قلوبهم ، وهو الدينار والدرهم ، وقال إن حالهم حال أحد هواة الـــكأس الذى قيل فيه :

وكل شيء رآه ظنه قدحـــا ٭ وكـــل شيء [1] رآه ظنه الســـاقي

فظنوا أن كل شق يفضى إلى كنز ، وكل صنم حافظ لمال ، فهدموا وأفسدوا ونقبوا بحثا عن المال حتى أن الأثرياء منهم أضاعوا ثرواتهم في هذا العبث وأنهم كان بعضهم وجد بعض الأشياء المصنوعة من الذهب فشجعه هذا على الاستمرار

ــ والثانية فى خلال الاضطرابات وتكـــرار النزاع بين الوثنيين والمتزمتين من المسيحيين ،

(١) فى الهامش وردت : امرىء.

في البحث . وقد استنتج البغدادى من وجود مثل هذه المصنوعات المدفــونة أن القدامى اتبعوا سنة دفن الآلة مع الرجل وشيء من الذهب [1] .

أما ما يوجد في أجــواف الجثث ، وهو ما يسمى بالموميا ، فقــد قام ببعض الاختبارات عليه ، كأن يعــرضها للشمس والنار ، فــوجد أنها إذا سخنت غلت ودخنت وشمت منها رائحة الزفت فاستنتج أن الغالب أن هذه المادة زفت ومرّ . أما الموميا الحقيقية فإنها - عنده - شيء منحدر من الجبال مع المياه ويتجمد كالقار ويفوح منه رائحة زفت مخلوط بقفر واستعان بجالينوس في قوله إن الموميا تخرج من العيون كالقار والنفط ، وبقول غير جالينــوس إن الموميا صنف من القار يسمى حيض الجبال ، وهذا هو الذى يوجد في تجاويف الموتى بمصر لايبعد عن طباع المومياء ، وإنها تستعمل بدلا عنه إذا تعذر [2] .

ومن أعجب ما وجده في مدافنهم « أصناف الحيــوان من الطير والوحش والحشرات وقد كان الواحد في كذا ثوبا . ومما يجدر ذكره أن البعض خــبره أنهم وجــدوا بيتا تحت الأرض محكمــا فوجدوا فيه لفائف ثياب القنب وقد تمعطت فأزالوها مع كثرتها فوجدوا تحتها عجلا صحيحا قد أحكم تقميطه [3] ، وأن آخرين حدثوه أنهم وجدوا صقراً فنشروا عنه من لفائف الثياب حتى عبوا

---

(١) اعتقد المصريون أن ما يدفن مع الموتى يبقى ، فكان يوضـــع لخدمتهم خلال حياة ثانيـــة .

(٢) الموميا لفظة فارسية معناها القار ، قد تكــون أطلقت فى عهــد متأخر على الأجساد المحنطة بمصر ، لتشابه لون هذه الأجساد بلون القار ، فكأنها عولجت به ، وهذه فــكرة خاطئة ، وقد استعمل مسحوق المميــات طبيا ونسب اليه خواص علاجية ممتــازة ، وكثر طلبه ، فزيفه بعض التجار وباعوا مواد مختلفة على أنها ذلك المسحوق العجيب ، وارتفع سعــره ارتفاعا باهظا فى القرون الوسطى (٢٤) .

(٣) لقد أجــرى البغدادى بحوثه ومشاهداته فى مقبرة منف ، أى فى سقارة حيث كانت تدفن عجول أبيس المقدسة فى السيرابيوم ، ترى هل كشف محدثوه عن السرابيوم منذ ستة قرون قبل مسبرو (Maspero) ؟ كما أن (أمرى Emery) كشف أخيرا عن آلاف الآلاف من طائر الأبيس المقدس فى سراديب حفرت تحت سطح الأرض ، وهو يعتقد أن هذه السراديب تــكون جزءا من معبد (إمحتب) الذى كان يتردد عليه المرضى للاستشفــاء ويضعون فيه قرابين من هــذا الطير الذى كان فى أعينهم مقدســا للاله (تحوت) اله الطب والمعرفة ول (أمحتب) اله الطب .

فوجدوه لم تسقط منه ريشة ، كما حدثوه عن أسماك وحشرات أخرى ، وأنه شاهد عظام بنى آدم يظهر عليها من الطراءة أكثر من رمم الهالكين سنة ٥٦٧ ﻫ التى سيجىء ذكرها فيما بعد ، وقد تعجب من عدم وقوعه على عظام الحمير أو الخيل أو الجمال [١] ، وقد أكد أنه سأل المشايخ عن هذا الموضوع فأخبروه بأنه تقدم فكرتهم في ذلك . ثم ختم هذا الفصل الطويل باقتباس ما قاله جالينوس في كتاب « عمل التشريح » :

« فمن أراد أن يشاهد كيفية تركيب العظام وهيئتها ينبغى له أن يقصد الإسكندرية ويشاهد موتى القدماء » ، وهذا لأن تشريح الجثث الآدمية كان محرما .

وفي الفصل الخامس وعنوانه (فيما شوهد بها من غرائب الأبنية والسفن) أعرب عن إعجابه بهندسة المبانى وترتيبها وتهويتها بالمنافذ والباذهنجات (آلات التهوية) التى تتراوح أثمانها من دينار إلى خمسمائة ، والمراحيض وقنواتها، ثم وصف بالتفصيل كيفية وضع أسس المنازل في عمق الأرض حتى تستقر على أرض جلدة ، وكذلك أفرد للحمامات التى لم ير في البلاد الأخرى أتقن منها . أما السفن فإنه رأى منها أصنافا كثيرة وأشكالا عجيبة ، أغربها (العشيرى) المزود ببيت من الخشب المعقود عليه قبة وبنوافذ ومرحاض وخزانة ، وهى التى يتخذها الملوك والرؤساء . وقد وجد طريق التقذيف في مصر — حيث يقذف المركب إلى الوراء — مختلفة عنها في العراق حيث تقذف السفن إلى الأمام ، وأما التمييز بين الطريقين من حيث السهولة فقد قال بحق إن البرهان عليها يأتى من العلم الطبيعى وعلم تحريك الأثقال .

وفي الفصل السادس وصف (غرائب أطعمتها) ومن هذه الأطعمة النيدة وهى

---

(١) كانت الحمير من حيوانات الاله (ست) البغيض ، ولذا فانها لم تحنط فى طقوس الدفن التى كان يهيمن عليها عدو (ست) الاله أوزيريس ، أما الخيل فانها لم تصل مصر إلا مؤخرا فى عهد الهكسوس فلم ينلها من التأليه ما نال الحيوانات الأصلية فى أوائل التاريخ ، وكذلك الجمال فانها لم تدخل مصر — على الأغلب — إلا فى عهد الفرس وقد قيل انها كانت أيضا من حيوانات (ست) .

من القمح المنبت المطبوخ بالماء والدقيق فتسمى (نيدة البوش) أو بالماء فقط فتسمى (النيدة المعقودة) .

أما الدهن فإنه يستخرج من بذر الفجل والسلجم (اللفت) والخس . ولم يجد في مطبوخاتهم من الغريب سوى المحلاة منها . كالدجاج المطبوخ بأصناف من الحلويات مثل الجلاب [1] والبندق والفستق والخشخاش وبذر الرجلة والورد . وتسمى الفستقية ، أو البندقية ، أو الخشخاشية ، أو الوردية ؛ وست النوبة التي تعقد ببذر الرجلة لسوادها ، أما الحلوى فقد وجدها كثيرة ، منها خبيص (أى فتة) اليقطين [2] والجزر والوردة والزنجبيل وغيرها ، وهريسة الفستق المركبة من الدجاح والفستق والجلاب ، ومن غريب المأكولات (رغيف الصينية) وهو رغيف من الدقيق والشيرج (السيرج) توضع عليه الأخرفة المحشوة باللحم والفستق والفلفل والزنجبيل والمصطكي والكزبرة والكمون والهال والجوز . ويرش عليها ماء الورد بالمسك ، ويجعل بين الخراف الدجاج المحشو بالبيض واللحم وماء الحصرم والليمون والجبن الخ . ثم يغطى برغيف آخر ويطبخ في الأفران ، وقد قال البغدادى عن هذا النوع إنه « يصلح أن يحمل مع الملوك وأرباب الترف إلى متصيداتهم النائية » ... لأنه « سهل المحمل عسر التشعث جميل المنظر مشكور المخبر يحفظ الحرارة » . . . ولكن العوام لا تعرف شيئا من هذا فإن أكثر أغذيتهم سمك الصير والخبز والجبن والنيدة وشرابهم المزر المخمر من القمح ، أو نبيذ متخذ من البطيخ في الشمال ، ومنهم من يأكلون فأر الصحارى وفي الصعيد من يأكل الثعابين والميتات من الحمير ويكثر أكل السمك في دمياط ويطبخ بكل ما يطبخ به اللحم من الأرز والسماق والمدققات وغير ذلك .

المقالة الثانية :

تنقسم المقالة الثانية إلى ثلاثة فصول ، أولها (في النيل وكيفية زيادته وإعطاء

(١) الجلاب من الفارسية : جل (ورد) و آب (ماء) .

(٢) نوع من القرع .

علل ذلك وقوانينه) . يبدأ هذا الفصل بمناقشة مقدار الزيادة في مياه النيل أى قياس فيضانه ، قال إن الحاجة منه لا تدعو إلى أكثر من ثماني عشرة ذراعا وإنها قلما تتجاوز عشرين ذراعا . أما الحد الأدنى الذى يكفل زراعة حاجة البلاد فقدّره بست عشرة ذراعا ويسمى هذا الحد بماء السلطان إذ عنده يستحق الخراج ، كما أنه يقال عندئذ إن البلاد شرقت ، ثم اشتق هذه اللفظة من قولهم شرقت الشمس إذا ظهرت وشرقت اللحم إذا نشرته ليجفّ ، وهذا لأن الأرض بارزة لا يغمرها الماء في السنة التي لا يوفي نيلها ، كما أنه يجوز أن يكون التشريق من قولهم ريح شرقية لأن هذه الريح عندهم دليل نقص الماء . أما اسم نهر النيل فإنه اشتقه من نال ينال نيلا ، أو من نال ينول نولا ، والنيل اسم ما ينال مثل الرَّعْى (بفتح الراء) للمصدر والرِّعْى (بكسرها) لما يرعى [1] . ومتى نقص النيل عن الست عشرة ذراعا كان ابتداء التفريط — المقابل للإفراط — ثم ذكر أنه في كتابه الكبير ساق سنى الإفراط والتفريط منذ الهجرة ، وأن الفيضان بلغ في سنة ٥٩٦ هـ (١١٩٩ — ١٢٠٠ م) اثنتى عشرة ذراعا وإحدى وعشرين أصبعا ، وهذا لم يسبق حدوثه منذ الهجرة . كما أن طبيعة الماء ولونه تغيرا وظهر فيه الطحلب ومواد نباتية ودود وحيوانات أخرى سببها ضعف المطر في الحبشة ، وهذا خبر علموا به من رسول ملك هذه الدولة ، الذى جاء إلى مصر حاملا كتابا يتضمن موت مطرانهم ، والتماسا بعوضه [2] ، ويقول إن أقباط الصعيد يزعمون أنهم يتكهنون على مقدار زيادة النيل من مقدار الزيادة في وزن طين يعرض ليلة للهواء الطلق ، وإن غيرهم يتكهن بطرق أخرى ، أما هو فقد وجد أن انخفاض قاع بركة المقياس ، أو ظهور الخضرة في أول الزيادة أو دوامها ، كلها تدل على قلة الفيضان ، وعلل هذه الظواهر بأن مياه النيل الأصلية من العيون ، وزيادتها من الأمطار ، ونقصان العيون يدل على يبس السنة وأن الخضرة إنما هى من المستنقعات التي يتركها الفيض السابق ، فكثرتها تدل على

---

(١) النيل كلمة مشتقة من الاغريقية ، لا من العربية ، فقد سمى الاغريق هذا النهر (نيلوس) وأصلها مجهول ، وقيل إنها مقتبسة من لفظة (نهر) ، أما في الأوديسة لهوميرس فاسمه أيجبتوس .

(٢) ان بطريرك الأقباط بمصر هو الذى يعين مطران الحبشة .

ضعف مياه الأمطار التي تمر بها وتصبها في النيل . وهنا فصل مياه بلاده وهي الدجلة والفرات لأنها ترد من منابعها على علاتها ولا تمر في برك بها عطن . ثم أكد بأن الاقتصاص يجيز التكهن بحجم الزيادة ، فإذا كلست الملاحظات تيسر العثور على دلائل أخرى ، ومن هذه الدلائل العلاقة بين الفترات بين النقصانات والزيادات من جهة ، وأحوال الكواكب واقتراناتها وطوالع مصر والسودان وملاحظة ما يتكرر منهما من جهة أخرى . ولكنه لم يجد عند منجمي مصر عناية كافية بهذه الناحية من علمهم ، اللهم إلا مشاهدات لا تنبني على أصول ، مثل ربط حوادث أرضية تقترن بحركات علوية ومواضع فلكية ، مع أن بعض الدلائل مجرب « منها على سبيل المثال أن الشهب انتشرت وعمت الجو في مصر في سنة ٢٩٠ ، وبلغ النيل ثلاثة عشر ذراعا » وهي نظرية بطليموس الجغرافي الخاطئة ، واضطرب الناس اضطرابا زالت به الدولة الطولونية من مصر ، وأن هذا تكرر في سنة ٣٠٠ ؛ ولكن البغدادي أضاف أن هذه الدلائل ، وإن كانت قوية ، عمت جميع الأقاليم ولم تخص مصر ، وقد شاهد مثلها في سنته من تناثر الكواكب في أولها ، ونشيش الماء في آخرها ، وتغير ملك مصر بعمه الملك العادل بعد حرب نشبت بينهما ، وهذه الأحداث هي موضوع الفصل التالي من الكتاب .

الفصل الثاني في حوادث سنة سبع وتسعين وخمسمائة :

يصف في هذا الفصل المصائب التي أصابت الديار المصرية في سنة ٥٩٧ هـ نتيجة لانخفاض مستوى النيل . ويمكن تقسيم الملاحظات إلى ثلاثة أبواب : باب يصف نقص بعض المواد الغذائية وخراب البلاد ، وباب يعرض لنقص السكان ، وباب يتناول مستويات النيل . وهنا يجب أن نعترف للبغدادي بقدرة خارقة على التعبير الوصفي ، وقد تكون حدة لسانه التي اشتهر بها هي التي برت قلمه عندما سرد هذه الحوادث في أبشع صورة ، ولضيق المجال سأكتفي بما استهل عبد اللطيف به روايته ، قال :

« دخلت سنة سبع مفترسة أسباب الحياة ، وقد يئس الناس من زيادة النيل ،

وارتفعت الأسعار وأقحطت البلاد ، وأشعر أهلها البلاء ، وهرجوا من خوف الجوع ، وانضوى أهل السواد والريف إلى أمهات البلاد ، وانجلى كثير منهم إلى الشام والمغرب والحجاز واليمن . . . واشتد بهم الجوع ووقع فيهم الموت ، وعند نزول الشمس الحمل [1] وبىء الهواء ، ووقع المرض والموتان ، واشتد بالفقراء الجوع حتى أكلوا الميتات والجيف والكلاب والبعر والأرواث ، ثم تعدوا ذلك إلى أن أكلوا صغار بنى آدم فكثيرا ما يعثر عليهم ومعهم صغار مشويون أو مطبوخون فيأمر صاحب الشرطة بإحراق الفاعل لذلك والآكل... الخ »

ثم يصف عبد اللطيف عددا من الغرائب التى شاهدها ، مثل حادث والدين شويا صغارهم لأكلهم وحوكما لذلك ، ورجل جردت عظامه من اللحم فأكل وبقى قفصا كما قد يجرد الطباخون عظام الغنم . فعلق على ذلك بقوله : « إن مثل هذا أعوز جالينوس مشاهدته ولذلك تطلبه بكل حيلة وكذلك كل من آثر الاطلاع على علم التشريح » . ويبدو أن الناس كانت تستفظع أكل الآدميين — أول الأمر — وتتناقل أخباره ، ولكنها اعتادته فيما بعد بحيث « اتخذوه معيشة ومطيبة ومدخرا وتفننوا فيه وفشا عندهم ووجد بكل مكان من ديار مصر فسقط حينئذ التعجب والاستبشاع واستهجن الكلام فيه والسماع له » .

ومن طريف ما رواه عن تلذذ البعض لهذا النوع الجديد من الطعام ، أن سيدة حاملا أكلته مصادفة فأعجبها وطلبته كما تطلبه الحوامل ، ووصل شغفها به إلى التواطؤ مع بعض الصعاليك على تصيد الصغار ، وظلت هكذا إلى أن كشف عن أمرها .

وقد كثرت حوادث اختطاف الصغار والسيدات السمينات وتصيدهم بالحيل ، ولم ينج منها الرجال ، فقد روى أن طبيبا أغرى بدرهمين لزيارة مريض في حى مهجور ففطن في آخر الأمر إلى ما كان ينتظره وهرب ، وأن السلطات كثيرا ما كشفت عن مخابىء عند العطارين اختزنوا بها اللحم الآدمى محفوظا بالماء والملح.

---

(١) من ٢١ مارس إلى ٢٠ أبريل .

وعندنا أن إفراد البغدادى بابا لهذه الروايات المؤلمة وإمعانه في وصفها مطولة كأنه يتلذذ من ترديد تفاصيلها البشعة – قد يرجع إلى واحد من احتمالات ثلاثة : الأول أن يكون قد شاهد حوادث قليلة منها ثم بالغ في مقدار حدوثها إما لسوء تقدير مدى انتشارها أو لتشويق قارئيه ومستمعيه أو لنزعته للتشنيع ، وأكل الآدميين من الأمور المعهودة في الظروف القاسية ، فقد انتشر عقب الحروب الطويلة المدى كحروب القرون الوسطى أو الحرب العالمية الأولى ، وبين الذين أمضوا أياما طويلة في تيه المحيط أو الصحارى أو القطب الشمالى، محرومين عن أى مدد ، ولكن عبد اللطيف توقع تهمة المغالاة فنفاها إذ أضاف أنه متخوف من إسنادها إليه مع أنه إنما قص ما صادفه اتفاقا بل إنه كثيرا ما كان يفر من رؤيته لبشاعة منظره .

والاحتمال الثانى أن يكون الشعب المصرى قد أصيب – في تلك الفترة – بنوع من الهستريا الجماعية نتيجة للظروف غير العادية التى كان يمر بها وأن هذه الهستريا تجسمت إما باختلال في شهوته جعلته يستطعم فعلا هذا الطعام ، وإما بقذف الناس بعضهم بعضا بهذه التهمة الشنيعة ، أسوة بما جرى في أوروبا خلال القرون الوسطى عندما اكتسحت أوروبا موجة تهمة السحر والحكم على المتهمين بالحرق . وهى الموجة التى أسماها المؤرخون اقتناص السحرة Witch hunting

ومن حوادث أكل اللحم البشرى تدرج عبد اللطيف إلى حوادث الفتك فى النواحى النائية ولا سيما في طريقى الفيوم والإسكندرية . وبين ركاب الزوارق، ثم تناول عدد الذين ماتوا من الفقراء جوعا فقال إن الماشى أين كان وقعت قدمه أو بصره على ميت أو من هو في حكمه . وإن عدد من كان يُختطف من القاهرة كل يوم يتراوح ما بين المائة والخمسمائة ، ومن مصر مالا يحصى ، وإن هؤلاء يرمون في الأسواق لعجز الناس عن دفنهم ، وإن أهل القرى هلكوا قاطبة إلا في الأمهات والقرى الكبيرة كقوص والأشمونين والمحلة، وإن المسافر كان مع هذا يجد البيوت مفتحة وأهلها موتى كما وصفهم كلام الله تعالى (جعلناهم حصيدا خامدين) . وروى أنه ركب سفينة فرأى أشلاء الموتى في الخليج وهى على حد قول ابن حجر شبيهة بأنابيش العنصل ، وإن طريق الشام

صارت مزرعة لبنى آدم بل إنها محصدة ومأدبة بلحومهم للطير والسباع . وإن أول من هلك على هذه الطريق أهل الحوف (بلبيس) إذ أن سكان وادى النيل قد نزعوا منه إلى الموصل وبغداد وخراسان وبلاد الروم والمغرب واليمن . وقد شاع أيضا بيــع الأحرار حتى بيعت الجارية الحسناء بدراهم معدودة وباعت الأمهات بناتهن البكر ، وترامى النساء والولدان الحسان على الناس طالبين إليهم أن يشتروهم أو يبيعوهم ، فاتخذ البعض من بيع الأحرار متجرا واضمحلت الأخلاق » وتباهى بعضهم بأنه فض خمسين بكرا ، ومنهم من يقول سبعين كل ذلك بالــكسرة » .

وقد أعجب عبد اللطيف أن جماعة أثروا في هذه الظروف بالتجارة أو الإرث أو بدون سبب معروف ، وهذا إنما يذكرنا بأن ثراء الحرب ليس بظاهرة جديدة ، فقد شوهد عند الرومان واليونان وغيرهم في مثل هذه الظروف ، وفي كل زمان .

ثم وصف البغدادى حال النيل فقال إن النهر جف في المقياس حتى أن جزيرة عظيمة ظهرت في وسطه بها آثار أبنية قديمة ، وأن الفيضان لم يدم إلا يوما واحدا ، فلم يمس إلا بعض البلاد وكأن طيف خياله زارها في الحلم ، ومع هذا فإن كثيرا من البلدان التى زارها الفيضان لم تزرع لهلاك أهلها فبارت . وقد ارتفع ثمن أردب القمح حتى وصل إلى خمسة دنانير والفول إلى ستة دنانير .

ويتناول الفصل التالى حوادث سنة ثمان وتسعين وخمسمائة وهى السنة التالية للسنة السابقة ، وقد تحسنت الحال في هذه السنة لا لزوال الأسباب وإنما لقلة الباقين من الفقراء ، فتناقص أكل بنى آدم حتى انقطع خبره وقلت السرقة لغناء الصعاليك وانحطت الأسعار لقلة الآكلين لا لكثرة المأكول . ومن أمثلة الضر الذى أصاب البلد أن مناسج الحصر التى كان عددها تسعمائة لم يبق منها إلا خمسة عشر . وقس على ذلك كل الصناعات ، وارتفعت أثمان المأكولات واستغل البعض الظرف للإثراء السريع ، فقد ألهم — على سبيل المثال — مصرى أن يشترى

من الشام دجاجا [1] بستين دينارا وباعها في القاهرة بحوالى ثمانمائة دينـــار ، والظاهر أن شيئا لم ينقص ثمنه إلا أجرة البيوت فقد صارت سرة القاهرة أكثرها خال خرب ، فخلا ربع في أعمر موضع بالقاهرة فيه نيف وخمسون بيتا تماما ، سوى أربعة بيوت سكنها الحرس .

وقد بلغ عدد من دخل تحت الإحصاء من الموتى في مدة اثنين وعشرين شهرا مائة ألف وأحد عشر ألفا وهذا قليل إذا قيس بالذين هلـــكوا ولم تسجـــل وفاتهم ، وقد صلى إمام الإسكندرية في واحد من أيام الجمع على سبعمائة جنازة وانتقلت تركة واحدة إلى أربعة عشر وارثا في شهر [2] .

أضف إلى هذا وباء شديدا بالفيوم والغربية ودمياط والإسكندرية ، كان يفتك بأكثر من فلاح على المحراث الواحد ، وكان الذين يبذرون غير الذين يحرثون وغير الذين يحصدون ، وأرسل بعضهم من يزرع فجاء الخبر بموتهم فأرسل عوضهم فماتوا وهكذا [3] .

لم تكتف الأقدار بتكديس هذه المآ سى بل توجتها بزلزال ، شبه البغدادى حركته بالغربلة أو بخفق الجناح ، وأصاب مصر من قوص إلى دمياط وامتد إلى قبرص والشام حيث اختفت في أثره بلاد بأجمعها .

وبعد بعض الملاحظات الطبية (التى سنعرض لها فيما بعد لأهميتهـــا) ختم البغدادى هذا الفصل بأخبار النيل ، الذى تأخر فيضه فترة فبعث اليأس في نفوس الناس ثم اندفع بقوة وبطوفان من المياه المتدفقة حتى وصل إلى ست عشرة ذراعا .

مشاهدات عبد اللطيف الطبية فى مصر :

روى البغدادى أن فهم كتاب التشريح لجالينوس تعسّر على بعض من كان

(١) ترجمت : دجاجة .

(٢) ترجمـــت : أربعين .

(٣) قد يكون هذا الوباء هو الطاعون ، الذى ينتشر عندما تموت الفئران الحاملة لجرثومة المرض ، فتهرب منها البراغيث الملوثة لتتغذى من دم الانســان فتعديه بالمرض .

يقرأ الطب عليه ، وهذا — حسب قوله — لقصور القول عن العيان ، فما كان منه إلاّ أن اصطحبهم إلى المقس (من ضواحي القاهرة) حيث قيل له إن به تلاً عليه رمم ، فشاهد مع الطلبة بقايا ما قدره بعشرين ألف ميت ، وعاينوا من شكل العظام والمفاصل وكيفية اتصالها وأوضاعها ما لا يستفاد من الكتب لأن الكتب كقوله « إما أنها سكتت عنها أو لايفي لفظها بالدلالة عليها » أو « لأن ما شاهدوه كان مخالفا لما قيل فيها » ، وأضاف: « والحس أقوى دليلا من السمع فإن جالينوس وإن كان في الدرجة العليا من التحرى والتحفظ فيمايباشره ويحكيه فإن الحس أصدق منه ثم بعد ذلك يتخيل لقوله مخرجا إن أمكن فمن ذلك عظم الفك الأسفل فإن الكل قد اتفقوا على أنه عظمان بمفصل دقيق عندالحنك وقولنا الكل إنما نعني به هاهنا جالينوس وحده فإنه هو الذى باشر التشريح بنفسه وجعله دأبه ونصب عينه وصنف فيه عدة كتب معظمها موجود لدينا والباقي لم يخرج إلى لسان العرب ، والذى شاهدنا من حال هذا العضو أنه عظم واحد ليس فيه مفصل ولا درز أصلا ، واعتبرناه ما شاء الله من المرات في أشخاص كثيرة تزيد على ألفي جمجمة بأصناف من الاعتبارات فلم نجده إلا عظما واحدا من كل وجه ثم إننا استعنّا بجماعة متفرقة اعتبروا بحضرتنا وفي غيبتنا فلم يزيدوا على ما شاهدناه . . ثم إني اعتبرت هذا العظم أيضا بمدافن بوصير القديمة . . فوجدته على ما حكيت ليس فيه مفصل ولا درز ، ومن شأن الدروز الخفيفة والمفاصل الوثيقة إذا تقادم عليها الزمان تظهر . . . » .

وعبد اللطيف في هذه النبذة القصيرة — التى أذاعت صيته أكثر من مؤلفاته الضخمة الأخرى — يظهر مظهر عالم واقعى مدرك لقوانين البرهان ، غير متمسك بأقوال من سبقه ، ومعتمد على الملاحظة المباشرة أكثر من اعتماده على مجرد سعة الاطلاع . إذا أثيرت صعوبة في تفهم الكتب لا يبحث عن مراجع أخرى ، ولا عن تأويل مدرسية أو تعليقات المفسرين بل نراه يلجأ إلى محك المعاينة المباشرة ، فيبحث عن العظام ويتفحصها ، وهذا « لقصور القول عن العيان » .

ولعل القارىء يستعجب إعجاب العالم العلمى بهذه النبذة إن لم يتأمل في سلوك علماء عصره جالينوس ومن تبعهم قرونا طويلة ، الذين كانوا يغالطون أنفسهم ويكذبون أعينهم ولا يجرءون على نقض قول لجالينوس .

لقد استمر رأى جالينوس في « عظمىّ » الفك زمنا طويلا . فقد أخذ برأيه ابن سينا عند وصفه تشريح عظام الفكّين حيث قال : « أما الفك الأسفل فصورة عظامه ومنفعته معلومة وهو أنه من عظمين يجمع بينهما تحت الذقن مفصل موثق » .

واستمر هذا الرأى سائدا حتّى بعد عبد اللطيف ، إلى أن أعاد نقده عملاق التشريح فيزاليوس Vesalius في القرن السادس عشر. وكأننا عند قراءة وصفه نستمع إلى عبد اللطيف يملى ملاحظاته على تلاميذه . قال فيزاليوس : « ولكن الفك في الإنسان مكوّن من عظمة واحدة . . . ولم ألاحظ إلى الآن أنها تنفصل بالطبخ أو بالتحلّل في جوف الأرض ، وإنى قد تفحصت أعدادا كبيرة من عظام الفك الأسفل وبخاصة في مقبرة الأبرياء (Innocents) بباريس، وكذلك في نواح أخرى ، ولم أجدها البتّة منقسمة إلى عظمتين » .

ومع ذلك فإن (سلفيوس) (Sylvius) تحدى فيزاليوس وأصر على أن هناك وصلة بين العظمتين وإن كانت مستترة تحت زوائد من العظم (٢٥) .

لم يكتف عبد اللطيف بتأكيد أن الحس أصدق من قول جالينوس ، ولكنه تطاول عليه ونعته بالافتعال والكذب إذ قال إن هذا العالم يتخيل للأمور مخرجا. وهذه تصريحات لو أنها أدلى بها في الغرب ، لعرضت قائلها للحرق والتعذيب ، لتعرضها لهالة التأليه التى أحاطت بالعالم الإغريقي .

ولنتأمل طريقة عبد اللطيف في سياقة البرهان ، إن البغدادى لم يكتف بمشاهدة فك واحد ، ولا بمشاهدته الشخصية له إذ أنه لم يفته احتمال وقوعه مصادفة على (فلتة) من الطبيعة ، أو على ميزة محلية ، كما لم يفته احتمال حدوث تطوّر في تكوين الإنسان على مرّ القرون .

وقد تجنب هذه الاحتمالات ، الواحد تلو الآخر ، بفحص ما يزيد على ألفى جمجمة ، ثم كلف غيره التأكد من صحة مشاهداته، ثم طلب إلى من صاحبوه إجراءها بعيدا عنه لئلا يتأثروا برأيه وهو أستاذهم ، ثم توجه إلى مدافن في بوصير لعل العظام هناك تختلف عنها في المقدس ، وكأنه توقع اعتراض معترض بأن الدروز لا تظهر في الجثث الحديثة ، فنقل بحثه إلى مدافن أعرق في القدم ، فرد بهذا مسبقا على طبيب القرن السادس عشر الذى صرح بأن الطبيعة إذا اختلفت عن أقوال جالينوس فإنما اختلفت لتغيير طرأ عليها على مر الزمان .

ثم تفحص عبد اللطيف عظمة العجز فقال عنها :

« وأما العجز فقد ذكر جالينوس إنه مؤلف من ستة عظام ووجدته أنا عظما واحدا واعتبرته بكل وجه من الاعتبار فوجدته عظما واحدا ، ثم إنى اعتبرته في جثة أخرى فوجدته ستة أعظم كما قال جالينوس ، وكذلك وجدته في سائر الجثث موثق المفاصل ، ولست واثقا بذلك كما أنى واثق باتحاد عظم الفك الأسفل » .

نراه هنا أمينا، لم يسعه إلا التصريح بأنه غير واثق من ملاحظاته على العجز ثقته بملاحظاته على الفك . إلا أن الأمانة نفسها تدعونا إلى تبرئة جالينوس من الخطأ الذى وقع فيه ، وأوقع غيره فيه ، لأن هذا العالم الأصيل إنما اعتمد في التشريح على تشريح جثث الأجنة المولودة ميتة، بسبب حظر الأديان تشريح الآدميين ، وعظمتا الفك عند الأجنة غير ملتئمتين .

ويبدو أن عبد اللطيف أجرى ملاحظات أخرى كان ينوى تدوينها في مؤلف خاص إذ أضاف : « وكذلك في أشياء أخرى غير هذه ولئن مكنتنا المقادير بالمساعدة وضعنا مقالة في ذلك نحكى فيها ما شاهدناه. إلا أن هذا المؤلف المكمل لملاحظاته الأولى والذى أزمع كتابته ، لم يصل إلينا ، إما لأنه لم يكتب ، أو لأنه ضاع ، أو لأنه ما يزال مدفونا تحت غبار المكتبات » .

الباب الرابع

مقالتان فى الحواس وبعض المسائل الطبيعية

من مؤلفات البغدادى التى ذكرها ابن أبى أصيبعة « رسالة في الحواس » ، وقد ذكرها أيضا ضمن مؤلفات البغدادى ابن شاكر الكتبي في « فوات الوفيات » (٢٦) وتوجد نسخة منها مودعة بمكتبة دير (سان لورنزودل الاسكوريال) قرب مدريد .

وقد استنسخ الدكتور فيصل دبدوب هذا المقال من صورة شمسية لهاوحققها وعلق عليها بمدح وافر ، ونشر بحثه بمجلة مجمع اللغة العربية بدمشق (٢٧) بناء على محاضرة ألقاها بالمؤتمر الطبى العربى السابع المنعقد في القاهرة عام ١٩٦٨ .

ونظرا لما تميز به (كتاب الإفادة والاعتبار) من الحرية في الرأى والاعتماد على الملاحظة وعدم الاكتفاء بالمراجع المألوفة ، فقد استشففنا وجود مثل هذه المميزات في رسالة الحواس ، ولذا — ونحن في صدد محاولة تكوين رأى مستقل في هذا العالم الذى اختلفت فيه الآراء — آثرنا معاينة المخطوط بأنفسنا ، وكان هذا قبل الاطلاع على مقال السيد الدكتور دبدوب ، فحصلنا بوساطة وزارة الإعلام الكويتية على صورة شمسية من المخطوط من مكتبة الاسكوريال وبادرنا بدراستها ، وفي هذه الأثناء تكرم علينا الدكتور دبدوب بنسخة من مقاله . فقمنا بمقارنة استنساخه لها بقراءتنا ووجدنا بعض الاختلافات سنذكرها فيما بعد ، كما أننا قابلنا نص الرسالة بما جاء في كتاب منافع الأعضاء On the use of parts لجالينوس (٢٥) وقد عرف العرب هذا المؤلف بعد أن ترجم إلى العربية ، وذكره ابن أبى أصبعة ضمن مؤلفات جالينوس المتداولة في زمانه والتى

قال عنها : « وبجالينوس من المصنفات كتب كثيرة جدا وهذا ذكر ما وجدته منها منتشرا في أيدى الناس مما قد نقله حنين بن إسحق العبادى وغيره إلى العربية (٢٨) » ثم ذكر اسم هذا المؤلف ضمن هذه المصنفات (٢٩)، ومما يدل على أن عبد اللطيف أطلع عليه بل درسه درسا مستفيضاً لولعه بكتابات جالينوس ولأهمية هذا المؤلف عند العرب، أنه صنف — حسب ما جاء في « عيون الأنباء » — مختصراً له .

كما أننا قارنّا الرسالة بما ورد في بعض كتب الإغريق وبالأجزاء المماثلة من قانون ابن سينا .

وصف الرسالة :

كتبت النسخة بخط مغربيّ جميل والناسخ عالم مدرك لما يكتب ، ولهذا كانت كلمات المخطوطة كلها سليمة تقريبا ويندر أن يحدث فيها سبق قلم ؛ مع ما في الكتاب من ألفاظ لغوية دقيقة المعنى مناسبة لسياقها .

ويلاحظ على طريقة النسّاخ أنه لا يكتب الهمزة المفردة مثل : — الماء وتلقاء ، طروء ، المرء ، القماءة ، الرداءة . فإنها كتبت — الما ، تلقا ، طرو ، المر ، القماة ، الرداة .

والتاء الأخيرة المربوطة قد تنقط وقد لا تنقط ، والهمزة التى على الياءلاتكتب ويكتب بدلها ياء مثل « استئناف » ، تكتب : « استيناف » .

وأهم ظاهرة في الخطوط المغربية بالنسبة للمشرقية هى كتابة الفاء والقاف ، فإن الكتابة المشرقية تضع على الفاء نقطة من فوقها أما المغربية فتضع نقطة من أسفلها ، والقاف المشرقية فوقها نقطتان ، أما المغربية ففوقها نقطة واحدة ، ولذا فإن الحرفين كثيرا ما يوقعان الشرقيين في التصحيف ، وهذه المميزات قد تكون سبب اختلاف قراءتنا لبعض الألفاظ عن قراءة الدكتور دبدوب .

وقد كتب بالقلم الأفرنجى تعليق على الرسالة بعضه بالأسبانية وبعضه باللاتينية وهاك نصه :

Dos tractados sobre los cinco sentidos compuesto por Abdullatif

(مقالتان في الحواس الخمس ألفهما عبد اللطيف) .

1 Libellus quatuor foliis comprehens de quinque sensibus aut hore **Abu muhamed abdullatif, filii Joseph filii muhamed** albadadi Babylonii in quo breviter agit de comprehensione erum modo sensationis uniuscujusque, de qualitatibus eorum, de ordine (corum ?) et proportione inter se mutua etc

(١) كتيب يحوى في أربع صفحات : « في الحواس الخمس » لأبى محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغدادى من بابـــل . حيث يتناول باختصار كيفية كل حاسة ، ومميزاتها وطبقاتها والنسب بينها .

2 — Ejusdem alius libellus de sensibus sed omnia tractat in particulari et multas quaestiones naturalium rerum quae (?) ab (?) nostris dici solent parva naturalia adjunxit

٢ — من المؤلف ذاته كتيب آخر في الحواس ولـــكنه يتناول كل شـــىء بالإضافة إلى مسائل طبيعية كثيرة . يسميها أهلنا الأشياء الطبيعية الصغيرة) .

أما بقية ما كتب باللاتينية فهو يخص مقالات لمؤلفين غير البغدادى وردت في المخطوط ذاته .

المقالة الاولى :

تقع في خمس صفحات ونصف صفحة وتحوى كل صفحة خمسة عشـــر سطرا ، ما عدا آخر صفحة فهى من ستة أسطر ، فيكون مجموعها ٨١ سطرا .

المقالة الثانية :

تقع في خمس صفحات وســـطرين في صفحة ســـادسة ، وعدد أســـطر المقالة ٧٧ سطرا .

تقع في ٢٩ صفحة ، كلٌّ منها يحوى ١٥ سطرا ما عدا الأولى فإنها تحوى ثلاثة عشر سطرا فقط .

وقد جاء في مقال الدكتور دبلدوب أن الرسالة تحوى سبع صفحات ونصف صفحة ، وإننا إزاء هـذا الاختلاف بين تقديره وتقديرنا كان لا بـد لنا أن نتساءل : هل النص الذى وصله هو النص ذاته الذى وصلنا ، أوأن الاسكوريال يمتلك نسختين مختلفتين ، وقد عزز هذا الرأى الأخير ذلك الاختلاف البين في قراءة نحو من خمسين لفظا ، ثم قصـر الدكتور دبلدوب مناقشته على الرسـالة الأولى ، ولذا فقد استفسرنا من السيد مدير مكتبة الاسـكوريال عن احتمال وجود رسالتين ، فأجابنا مشكورا بأنه عند مراجعته المخطوطات العربية المودعة بهذه المـكتبة لم يجد إلا منسوخا واحدا منها ، كما أننا رأينا نشرالرسالة حسب قراءتنا وتحديد الألفاظ التي خالفت قراءتها نظائرها في مقال الدكتوردبلدوب ، ذاكرين في الحواشي قراءة سيادته مقرونة بعلامة (د) .

تحليل الرسالة

يجدر بنا ، قبل أن نتعرض لهذه الرسالة، أن نحاول تشمّم الجوّ العلمى الذى ساد عصر كتابتها ، عسانا ننصف مؤلفها في حكمنا عليها ، فقدكان هذا الجو — على نقيض سلوكنا الفكرى الحالى — متشبعا بالغائية التي آمنت بأن الأعضاء إنما بنتها الطبيعة حسب الغرض المنتظر منها ، حتى تقضى بالغرض المطلوب إليها ؛ وعسانا ندرك قوة هذا التيار في مناهج التفكير إذا تريثنا وتأملنـا في أقوال أفلاطون وجالينوس وابن سينا في جزء محدود من التشريح ومنافع الأعضاء ، هو الجزء الخاص بكيفية نشـأة الرأس على شكله الحالى وفي سبب وضعه في أعلى الجسم ، وهى أقوال ترتبط بالحواس .

قال أفلاطون في (طماوس Timaeus) (٣٠) إن شكل الرأس كروى لأنه

أقدس جزء من جسم الإنسان[1] ، وبما أنه لا يصح أن يتدحرج على الأرض ، ولا يقوى على تسلق الأشجار أو التغلب على المنخفضات ، فقد اكتسب الجسم طولا ، ونبع منه أربعة أطراف ، وجعل الوجه إلى الأمام ، وخلقت فيه عينان تحملان الضوء وتنبثق منهما نار (٣١) .

وقال جالينوس بعده بخمسة قرون (٣٢) : « إننا ، إذا حصرنا أجزاء الإنسان غير الموجودة في صدور الحيوانات العديمة الرأس ، فإنه يحق لنا الاستنتاج بأن هذه الأجزاء هي التي خلق الرأس من أجلها . . . أما عند السرطان [2] والحيوانات غير ذوات الرؤوس ، فإن العين وضعت على ساق طويلة لأنها — على خلاف الفم والأنف والأذنين — لا يصح وضعها إلى أسفل ، إذ أن الحاجة تدعو إلى وجودها في مرتفع لتتطلع منه إلى إقتراب العدو ، وفي الإنسان يجب أن تكون العين رخوة ، فإذا وجدت على الساق تعرضت إلى خطر ، ثم إن وضعها إلى أسفل يعدم فائدتها ، ولهذا السبب فقد ابتكرت الطبيعة عضوا خاصا ليحملها ، مرتفع المكان وقادرا على حمايتها (هو الرأس) .

وبما أن الحواس تحتاج إلى أعصاب رخوة فإنه لا يصح إبعاد هذه الأعصاب عن الدماغ ، لسهولة سحقها أو قطعها إذا طالت ، ولذا وجب اقتراب أدوات الحس من الدماغ ، وبما أن الدماغ موجود في الرأس ليكون قريبا من العين ، فقد وجب كذلك وجود سائر أدوات الحس في الرأس بسبب وجود الدماغ فيه . . . » .

وقد أبدع ابن سينا في التعبير المختصر عن هذا الرأي إذ أعاد هذه التصريحات في الفصل الأول من المقالة الأولى من الفن الأول من الكتاب الثالث من القانون، قال : « قال جالينوس إن الغرض من خلقة الرأس ليس هو الدماغ ولا السمع ولا الشم ولا الذوق ولا اللمس فإن هذه الأعضاء والقوى موجودة

(١) الشكل المدور عند أفلاطون هو الشكل الكامل .
(٢) السرطان هو (أبوجلمبو) أو (السلطعين) أو (الجبجب) .

في الحيوان العظيم الرأس ، ولكن الغرض منه حسن حال العين في تصرفها الذى خلقت له وليكون للعين مطلع ومشرف على الأعضـــاء كلها في الجهات جميعا فإن قياس العين إلى البدن قريب من قياس الطليعة إلى العسكر وأحسن المواضع للطلائع وآصلها هو الموضع المشرف » .

ومن جهة أخرى فإن القدامى لم يفصلوا بين فيزياء الضوء والصوت وغير هذه من الأحداث التي تنبه الحواس . وبين إدراك الحواس لها ، بل قصـــدوا بالـ (فيزياء) تفسير كيفية إدراك الذهن للعالم الخارجى ، وهذه العملية هي عملية فـــكرية . بينما نحن نقصـــد اليوم من ممارسة الفيزياء معرفة قوانين الـــكون وتركيبه معرفة مطلقة ، دون مراعاة انطباعات المشاهد له . ولم يكن مردّ إهمال الفصل بين الفيزياء وعلم النفس إلى خطأ منطقيّ ، وإنما كان مرجعه إلى نظرية حيوية قامت عليهـــا فلسفة أفلاطون وأتباعه . ولذا فقـــد جاءت نظرية الحس وبخاصة في جزئها الذى تناول الإبصار . في غاية التعقيد . لأنها مزجت بين ثلاثة علـــوم . نميّز اليوم تمييزا جـــذريا بين بعضها وبعض ، هى الفيزيـــاء ، والفسيولوجيا (وظائف الأعضاء) ، والفلسفة ، وكان للفلسفة فيها حصة السبـــع .

نرى أفلاطون لا يهتم بتشريح العين ولا يقيم لعلم الإبصار نظرية متكاملة متماسكة ، وإنما يكتفى بالنواحى التى ترضى اتجاهه الميتافيزيقىّ . ونرى هذا الميل يعزّزه فرض أرسطو والرواقيّين وجالينوس تكون المادة من عنصرين : جوهر أول (هيولى) ، وطبائع عارضة غير مرئية ، وأخذهم بأن التغيرات التى تطرأ على المادة والتى قد نسميها فيزيائية أو كيميائية أو فسيولوجية ، إنما تأتى نتيجـــة لتغيرات في نسب هذه الطبـــائع بالاستبدال أو الـــزيادة أو النقص ، وأن أساس فاعلية أى عنصر أو أى عقار على الجسم . هو انتقال بعض هذه الطبائع منـــه إلى الجسم . على أن تؤخذ هذه الطبائع بمعناها المجرّد ، وليست على أنها انتقال جزئيات من الجسم ذى الخاصة إلى الجسم الآخر . وهذا معناه أن الطبائع هى قوى لها كيان خاص وأن هذه القوى مشحونة في جوهر افتراضى .

وقد ذهب الفلاسفة الأيونيون منذ القرن السابع قبل الميلاد إلى أن هذه الطبائع

ربع : الجفـاف والرطوبة والبرودة والسخونة ، وأنها تقابل أركان الـكون الأربعة (أو الأسطقسّات ، من Stoichoion) وهى الهواء والأرض والمـاء والنار ، وأن هناك طبائع مختلطة ، وأنها على أربع درجات من القوة ، فيقال إن هذا العقار أو ذاك حارّ من الدرجة الأولى أو رطب من الدرجة الثانيـة ، وهكذا ... ، ونرى ابن سينا يقول : « إن الأركان هى أجسام ما بسيطة هى أجزاء أولية لبدن الإنسان ولغيره وهى التى لا يمكن أن تنقسم إلى أجزاء مختلفة... ويحدث بامتزاجها الأنواع المختلفة الصور من الـكائنات ... إنها أربعة لا غير ... النار والهواء والماء والأرض ... وا لأرض بارد يابس ... والماء بارد رطب ... والهواء حار رطب والنار حار يابس » . ثم يضيف أن الأعضاء إنما تتولد من أول مزاج الأخلاط المحمودة كما أن الأخلاط أجسام متولدة من أول مزاج الأركان .

ومثال ذلك أيضا أن الغدد الجنسية تنبت المميزات الجنسية في الجسم بنقل طبيعة الذكور أو الإناث الـكامنة فيها ، لا بفعل إفرازات أو موادّ تنفصـل عنها ، وكل هذه الأفـكار هى التى أتاحت ظهور (الصنعة) أى إمكان نقـل طبائع معينة من معدن إلى معدن لتحويله في النهاية إلى ذهب .

ولـكن أساتذة المدرسة الذرية Atomists أنصار الفيلسوف إبيكوروس (Epicurus) لم يقبلوا هذا الرأى ، وذهبوا إلى أن هذه الطبائع ماهى إلا انطباعات ذهنية تعكس تركيب ذرات المادة الهندسىّ ، وهذا أقرب إلى الرأى الحالى الذى لا يعترف للطبائع (كالحرارة أو البرودة) بـكيان مستقل ، ويرى فيها محض استجابة الجسم والذهن لبعض الأحداث الفيزيائية أو الـكيماوية .

إذن فنحن لا نستغرب خلوّ هذه الرسالة من أية اعتبارات تشريحية دقيقة ، وبناءها على مجرد تأملات ذهنية ، وقد تناولت خصيصا تدريج الحواس على سُلّم أهميتها للجسم ، واستنتاج أهمية كل منها على أسس موضوعة ، منها قياس الأهمية بدرجة مباشرة الحواسّ للمحسوس ، ولم يكن البغدادى أول من حاول

تدريج الحواس على هذا السلّم ، فقد سبقه في هذا جالينوس ، ومن العرب ابن سينا ، إذ قال في فصل (أمراض اللسان في الفن السادس للـكتاب الثالث من القانون) وهو يعلق على أفضلية اللمس على الذوق : « وقد يحدث له (أى للسان) أمراض تحدث آفة في حسّه اللامس والذائق بأن يبطل أو يتغير وربما بطل أحد حسّيه دون الآخر كالذوق دون اللمس ، لاقتدار المرض على إحـلال الآفة بأضعف القوتين » .

مقالتان في الحواس

المقالة الاولى

مقالة في الحواس

بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسـّــر

قال الشيــخ الإمام أبو محمد عبد اللطيف بن يوسف بن محمد البغــدادى : مقالة فى الحواس ومدركاتها وكيفية [1] مراتبهـــا ونسب بعضها إلى بعض .

وقد علمت أن الحواس خمس [2] وأنها تشترك فى إدراك أعراض [3] الأجسام ، وأن كلا منها يختص بصنف من المدركات ، ولا يشترك اثنان منها فى صنف واحد من المدركات معاً [4] ، وكل واحد من الحواس له عضو خاص به هــو آلة

(١) طبيعة (د)

(٢) قال البعض إن الحواس خمس وقال البعض الآخر إنها ثمان ، قال ابن سينا فى الفصل الخامس من التعليم السادس من الفن الأول من كتاب القانون : « . . . والقوة المدركة فى الظواهر هى الحسية ، وهى كالجنس لقوى خمس عند قوم وثمان عند قوم ، وإذا أخذت خمسة كانت قوة الأبصار وقوة السمع وقوة الشم وقوة الذوق وقوة اللمس ، وأما إذا أخذت ثمانية فالسبب فى ذلك أن أكثر المحصلين يرون أن اللمس قوى كثيرة بل هو قوى أربع ويخصون كل جنس من الملموسات الأربـــع بقوة على حدة إلا أنها مشتركة فى العضو الحساس كالذوق واللمس فى اللسان والأبصار واللمس فى العين وتحقيق هذا إلى الفيلسوف .

(٣) أغراض (د) .

(٤) لعل البغدادى قصد هنا بالحاسة العضو الخادم لها . فان تعريف الحاسة (القوة النفسانية —

له ما خلا حاسة اللمس فإنهـا سارية فى الجلد بأسره ، وفى كثير من اللحم الـكائن تحته ، وبالجملة فى كل ما أنبت فيه عصب الحس ، وهـذه الحواس على طبقات، فأولها ما يدرك من محسوسه أعراضه القارّة [1] فيه والمتصلة به وذلك عند مباشرته له [2] كحاسة اللمس فى إدراك الحرارة والبرودة والرطوبة واليبوسة والخفة والثقل واللين والصلابة والملامسة والخشونة ونحو ذلك ، وهذه الحاسة عامة للحيوان ومقـدّمة على سائر الحواس [3] وهى أثبت معرفة وأقـوى

— المدركة) ، ويتبع هـذا أن كل صـنف من الإدراك هو حاسـة وأن قوله إن كل حاسة تختص بصنف واحد من المدركات هو تعريف الماء بالماء . أما إذا قال إن كل عضو حاس يختص بصنف من المدركات وإنه لا يشترك اثنان من الأعضاء فى حاسة واحدة فان هذا جائز منطقيا وإن كان خطئا موضوعيا لأن بعض الأعضاء يدرك أكثر من حاسـة ، كاللسان الذى يدرك الذوق واللمس والألم ، وكحاسة اللمس التى تعم الجلد واللسـان والعين والأنف كما قال البغدادى وكل الأغشية المخاطية كالقرنية والملتحمة . الخ ... ».

(١) الثائرة (د) .

(٢) قال أرسطو إن اللمس لا يتم إلا بالملامسة المباشرة وان هذه الحاسة هى الوحيدة التى تستجيب إلى المحسوس إذا وضع على العضو المدرك مباشرة ، وضرب مثالا لذلك أن الأشياء إذا وضعت على القرنية لا تبصر (٣٤) ، غير أن الاغريق اشترطوا الاتصال (Haphe) لادراك كل أنواع الحس ، وهم فى ذلك لم يقصدوا الاتصـال المباشر إلا للجلد ، فقد قال جالينوس إن اللسان يستجيب إلى ملامسة الرطوبة الموجـودة عليه ، والسمع لملامسة حركة الهواء ، والشم لملامسة مزيـج من الهواء وطبائع الروائـح .

(٣) قال أرسطو كذلك إن حاسة اللمس هى أكثر الحواس أساسية للبقاء وإن الحيـاة مستحيلة بدونها (٣٥) ، هذا ويتمتـع الانسـان بحاسة لمس أقوى وأكثر تمييزا منها فى الحيوان لنمو المراكز العصبية الخاصة باليد التى تجعل من هذا العضو آلة من أدق الآلات .

وقد ميز الإغريق بين أنواع مختلفة من اللمس ولم يربطوها بأعضاء أو بأعصاب مختلفة ، والسبب فى هذا أن جالينوس كان يقطع الأعصاب كاملة فى تجاربه ولم يكن له إلى التجربة —

أدراكا وأصدق حـكما ، وتتلوها حاسـة الذوق ، وهي تختص باللسان ، ويدرك من محسوسها الطعوم المتحللة[1]

على أوتار فردية سبيل فلم يميز بين الأعصاب الموصلة إلى أنواع الحس المختلفة . غير أنه خص نوعا من الأعصاب – غير أعصاب الحركة وأعصاب الحس العادية – بنقل الحس من الأحشاء الداخلية (٣٦) ، وهذا ما لم يذكره البغدادى ، كما أن البغدادى لم يميز الحس بالألم ، الذى أفرد له جالينوس صفحات عدة فى مختلف كتاباته ، وقسمه إلى أنواع ، وإن كان لم يحدد له نوعا من الأعصاب خاصة به ، وذهب إلى أن الألم لا يختلف عن سائر الحواس ، بما فيها الإبصار والسمع (٣٧) إلا بشدة الإنباه . وقد قال عن الألم : « وقد أعطت الطبيعة نصيباً وافيا من هذه الحاسة لتلك الأجزاء المعرضة للقطع أو السحق أو التآكل لتنبه الحيوان إلى العمل على التخلص من مسبب الألم قبل أن ينزل به الضرر » (٣٨) ، فأعطى جالينوس بذلك الأسبقية الى الألم في الحفاظ على الحياة .

وبالاضافة فان عبد اللطيف بوب كل ما يحس باللمس تحت باب واحد ، أما جالينوس فقد كان أقرب إلى الحقيقة كما نراها اليوم إذ قال إن اللمس والحرارة والبرودة تدرك مباشرة ، بينما أن إدراك الصفات الأخرى كاللين واليبوسة والصلابة والرطوبة تحتاج إلى وظيفة أعلى من التنبيه المباشر للعصب وهى عمـل من أعمال الذهن ، الذى يصدر حكمه بناء على الخبرة (٣٩) ، وقد بين العلم الحديث أن هناك ثلاث صفات حس أوليةهى اللمس والحرارة والبرودة – بالاضافة إلى الألم – وأن كلا منها له أعضـاء خاصة ، وأعصاب حساسة خاصة ، أما الباقيـة فانها ترتـكز إلى عمليات نفسية معقـدة تتناول الأحاسيس الأولية بالتحليل والتركيب .

وقد فات عبد اللطيف – ولعل الداعى إلى هذا النسيان كان طلب الاختصار – أن أنواع الحس المختلفة كالحرارة أو اللمس أو الثقل تختلف قوتها فى مختلف الأجزاء ، فان أطراف الأنامل أدق فى إدراكها للمس ، والوجنتين أقدر على تمييز التغيرات الطفيفة فى ارتفاع الحرارة ، وطرف اللسان أقدر على التفرقة بين نقطتين متقاربتين ، وتدل بعض هذه الاختلافات على اختلاف المسالك التى يسلـكها كل من هذه الأحاسيس وهذا أمر قام عليه البرهان العلمى .

أما أنواع الألم فان البغدادى لم يتعرض لها ولا شك فى أنه عرف وصف جالينـوس لأنواع الألم المختلفة وهى الألم النابض والثقيل والحار والشاد والوخزى والخدر والقرحى وآلام السحاق والتقلصات . . الخ (٤٠) .

---

(١) المتخللة (د) .

منه المختلطة بالرطوبة[1] المتحلبـــة[2] فى اللســان ، وإنمــا يــكون ذلك بانفصال شيء من المحسوس واتصاله بالحاس عند مباشرة اللســان ماله طعم من الطعــوم الثمانيــة[3] ، وهى أيضا[4] عامة للحيـــوان وإدراكها قـــوى وحكمها صادق ، ولا تــكاد تغلط إلا نادرا وعند حلول آفةبها[5] .

وتتلوها حاسة الشم وهى تدرك من محسوســـها الروائح المتحللة منه المنفصلة[6] عنه المختلطة بالنسيم المستنشـــق الواصل إلى الدماغ[7] ، وذلك يــكون عند مباشــرة حاسة

(١) قال جالينوس كذلك إن الرطوبة ضرورية لادراك الطعوم (٤١) انظر أيضا الباب الخامس فى الرطوبة .

(٢) المتحللة (د) .

(٣) إن الطب الحديث يعترف بأربعة طعوم أساسية هى المرارة والحلاوة والملوحة والحموضة ، وكان جالينوس يضيف اليها ثلاثة أخرى هى : ضرب آخر من المرارة Austerotes والقابضــة ، وضرب أســماه Drymis يجمع بين المر والحامض والنــافذ ، فيكون وصف بذلك سبعة أنواع ، ولــكنه أضاف أن عدد الطعوم قابل للجدال (٤١) .

(٤) سقطت (أيضا) (د) .

(٥) قارن ما قاله ابن سينا فى القانون (الفن الســادس من الــكتاب الثالث ، فصل فى أمراض اللسان : « وقد يعرضله أمراض تحدث آفة فى حسّه اللامس والذائق بأن تبطل أو تضعف أو تتغير ، وربما بطل أحد حسيه دون الآخر كالذوق دون اللمس لاقتدار المرض عــلى إحلال الآفة بأضعف القوتين » ، ولعل معنى هذه النبذة ان الذوق فى نظر ابن سينا أضعف من اللمس .

(٦) المنفكة (د) .

(٧) الدماغ هنا هو ما نسميه المخ ، ومعنى ما قاله عبد اللطيف هو أن الرائحة تصل إلى الدماغ مع النسيم ، فقد كان الاعتقاد أن النسيم يحمل ريحا Pneuma يعبر فتحات المصــفاة الموجودة فى سقف الأنف فيصل إلى الدماغ ، حيث يتحول إلى الروح الحيوى ، —

الشم الهواء المتنسم الذى انفعل[1] عن الجسم ذى الرائحة أو اختلط به شىء من لطيفه المنفصل عنه الحامل للرائحة[2] ، وإدراك هذه الحاسة أضعف من إدراك حاسة الذوق ، ولكن بينهما مناسبة قوية وشبه ظاهر حيث كان[3] البخار الحامل للرائحة شبيها بالرطوبة الحاملة للطعم ، ولما كانت حاسة الذوق تباشر الجسم من مكان قريب وبمتوسط خاص منحصر ، كانت أصدق

- وأن الروائح تدخل مع النسيم على شكل جزئيات عبر ثغرات المصفاة إلى البصيلتين الشميتين اللتين كانتا توصفان بأنهما مجوفتان (٤٢) ، وقد كانت فكرة تجويف الأعصاب قديمة ، ترجع إلى القمايون الأيونى Alcmaeon الذى صرح بها فى القرن السادس قبل الميلاد ليفسر توصيل الأعصاب للتنبيهات والحواس ، فشبه الأعصاب بالقنوات ، وقد دام هذا الرأى مأخوذا به حتى القرون الوسطى ، وقال حنين بن إسحق ، محاكاة للإغريق ، إن عصب الإبصار أجوف .

وقد قال ابن سينا فى المقالة الأولى من الفن الخامس فى أحوال الأنف : مجرياه ينفذان إلى المصفاة الموضوعة تحت الجسمين الشبيهين بحلمتى الثدى والحجاب الدماغى هناك أيضاً يثقب بازاء ثقبة من المصفاة لينفذ فيها الريح ، وكذلك تتصفى الفضول فى تلك الثقب ومن طريقها ينال الدماغ والزائدتان الناتئتان من الرائحة بنشق الهواء .

كما قال فى الفصل الرابع من الجملة الأولى من التعليم الخامس من الفن الأول فى تشريح عظام الأنف : « فان الهواء المستنشق وان كان ينفذ جملة إلى الرئة فان شطرا صالح المقدار ينفذ أيضا إلى الدماغ .

(١) انفصل (د)

(٢) وقد قال ابن سينا فى المقالة الأولى من الفن الخامس من الكتاب الثالث من (القانون) : « وأما كيفية الشم . . أما أن الرائحة يكون فى الهواء انفعال منه أو تادية أو بسبب بخارى يتحلل فذلك إلى الفيلسوف وليقبل الطبيب أن الشم قد يكون فى الأصل باستحالة ما فى الهواء على السبيل التادية ثم يعينه سطوع البخار من ذى الرائحة .

(٣) ان (د)

وأقوى من حاســة الشم[1] ، إذ كانت حاســة الشم تدرك محسوسها بمتوســط كثير مشترك ولا تباشر الجسم ذا[2] الرائحة بذاتها بل بوسائط[3] ومن مــكان بعيــد ولذلك صار يشتق للروائح أسماءً من الطعوم وينقل إليها منهــا فيقال رائحة طيبــة وكريهة وحادّة وحرّيفــة[4] وأمثــال هــذا ، وإن كان للروائــح من ذلك أسماءٌ تخصها مثل[5]

---

(١) قال جالينوس : « هناك تشابه كبير بين الشعور بالروائح والطعــــوم ، والطعم أكثر تميزا بينما إثبات الشم ضعيف ، كما قال إن المعول على الطعم أوثق منه على الشم لأن ماتفرزه المواد ذوات الروائــح من البخار لا يكفى فى كثير من الأحوال . . . بينما أن تنبيه اللسان مباشر (٤٣) .

كما قال ابن سينا فى المقالة الثالثة من الجملة الأولى من الــكتاب الثانى :

« ومن الأسباب التى فاقت فيها الطعوم الروائح فى هذا البــاب وصولها إلى الحس بملاقاة فهــى أولى من أن يوصل من جميــع أجزاء الدواء قوة والروائح والألوان تؤثر بــلا ملاقاة من أجزائها فيجوز أن يصل إلى الحس من أجزاء ذى الرائحة بخار من لطيــف أجزائه ويستعصى البخار من كثيف أجزائه فلا يتبخر ويجوز أن يصل إليه لون الظاهر الغالب دون المغلوب الخفى ولأن الروائح قد تدل على الطعوم مثل الرائحة الحلوة والحامضة والحريفة والمرة كانت الروائح تالية للطعوم والطعوم أكثر صحة دلالة ثم الروائح الألوان » .

(٢) (د) فقط (د) .

(٣) بوساطة (د) .

(٤) لا ينفرد الطعم بصفتى (الطيب) و(الــكريه) فالطيب ما يروق أية حاسة والــكريه ماينفر منه ، أما (الحارة) (الحريفة) فانهما صفتان للأنف واللسان على السواء ولا علاقة لهما بالشم أوالذوق ، لأن الأنف واللسان يحويان عصبا حاسا غير عصبي الشم والذوق (هو العصب الخامس) ، يستجيب للطعوم (الحارة والحريفــة) وما هما إلا نوعان من الألم وليستا من أنواع الطعوم الأساسية الأربــع وهى – كما أسلفنا – (المالح) و (الحلو) و (المر) و (الحامض) ، أما مميزات الروائح فقد ذكرها البغدادى فيما بعد (انظر هامش رقم ٢ من الصفحة التالية) .

(٥) كمثل (د) .

المنتن والذفر والسهك[1] ونحو ذلك[2] ، وليست هذه الحاسة ضرورية لكل حيوان ، بل كثير من الحيوان لا تكون له هذه الحاسة ، أو تكون له ضعيفة كالسمك[3] فأما الإنسان فإن حاسة الشم فيه وإن كانت ضعيفة أضعف منها فى كثير من الحيوان ، إلا أنها أصدق إدراكا وأقوى تمييزا لفصول المشمومات ، وأقوى ما تكون هذه

---

(١) وردت فى (د) : «كلمة غير واضحة» ، أما السهك فهو ريح كريهة تجدها من عرق أو من اللحم المنتن أو من السمك .

(٢) نضيف هذه الأوصاف الخاصة بالروائح : (العطر) و (الفكه) الخ ، ويصعب وصف الروائح إلا إذا شبهت بروائح معروفة ، وهذا لكثرتها واستحالة حصرها كالطعوم فى أربعة أصناف ، وقد حاول أرسطو وجالينوس تفسير جميع الحواس على أنها مركبة من نسب مختلفة من الطبائع الأربع المقارنة للأخلاط الأربعة ، ولكن جالينوس أعرب عن عدم اقتناعه بهذا وقال : «لكنى أود لو أنى استطعت تفسير نشأة كل طعم من هذه الطعوم ، وانى لأسعد للاستماع إلى مثل هذا الأخبار» (٤٤) . وإذا قبلنا جدلا أن أسماء الروائح مشتقة من أسماء الطعوم فان هذا لا يدل على أى تدرج بينهما ، فالاستعارة من حقل إلى آخر جائزة وجارية ، كأن يقال فى العلوم الهندسية : ذراع المكبس ، أو هيكل الطائرة ، أو ضلع المثلث ، وفى الطب : اللوح الصفوى أو الوريد البابى ، دون الإشارة إلى أية علاقة بين تشريح الجسم والهندسة سوى التشابه الخارجى .

(٣) لم يوفق البغدادى فى هذا المثل ، فان الأسماك الموجودة فى غياهب أعماق البحار تعتمد فى توجيهها على الشم ، وهناك التباس واضح بين الطعوم والروائح ، لاتصال الفم بالأنف ، وطعم الشىء مكون من شقين : الطعم بمعناه المحدود (حامض ، مالح ، مر ، حلو) وأداته اللسان ، والنكهة وأداتها الأنف ، ولذا فان القول بأن حاسة الذوق أصدق من حاسة الشام جدير بالنقاش لأن أنواع الطعوم محدودة بينما أنواع الروائح لاحصر لها . ويبدو اتجاه تفكير أطباء القدامى فى هذا جليا ، فان البغدادى بنى ترتيبه للحواس على درجة مباشرة المحسوس للعضو الحاس ، أى أنه بدأ بوضع مبدأ لترتيب الحواس ثم رتبها حسب هذا المبدأ ، وهذا تصرف عقلانى محض لم يؤسس على الواقع (انظر أيضا أقوال ابن سينا فى هامش رقم ٢ ص ٧٩) .

الحاسة فى صنوف من الطير وصنف من الـكلاب .

ويتلو هـذه حاسـة البصر وهى تدرك من محسوسها اللون وما يتصـل بذلك مثـل التخطيط والترتيب والوضع والشكل والقـرب والبعد[1] والحركة والسكون ، من غير أن تباشره[2] كاللمس ، ومن غير أن ينفصل من المحسوس شىء فيتصل[3] بالحاس كالذوق أو يتصل بالمؤدى إلى الحاس كالشم ، ولكن لا بد من مقابلة[4] البصر للمبصر[5] وارتفاع الحاجز بينهما ، وإنما تدرك منه أحواله القارّة[6] فيه أو ما هو بمنزلة القارّ[7] فيه ، وهو أيضاً قوى الإدراك قليل الكذب سهل تبين الغلط . ويتلوها

(١) قال جالينوس أيضا إن هذه المحسوسات متصلة باللون (٤٥) .

(٢) تلامسه (د) .

(٣) يتصل (د) .

(٤) بد لمقابلة (د) .

(٥) هل يعنى عبد اللطيف مقابلة (الروح) المنبثقة من العين للشكل الوارد من الكائن المرئي . لقد كانت هذه نظرية قائمة ، وإن كان ابن الهيثم هدمها من قبل البغدادى ثم نسيت كتاباته ردحا من الزمن . قال ابن سينا فى المقالة الأولى من الفصل الرابع من الكتاب الأول من القانون « . . . والروح الباصرة ينفذ إلى العين من طريق العصبتين المجوفتين اللتين عرفتهما فى التشريح » .

(٦) الغائرة فيه (د) .

(٧) الغائر (د) .

حاسة السمع وهى آخر الحواس رتبة وأقلها عموماً وضرورة وأضعفها تمييزا لفصول[1] مدركاتها[2] ، وإنما تدرك من[3] الأجسام الأعراض المنفصلة عنها غير القارّة[4] فيها ، أعنى الصوت الحادث عند مصادمة الأجسام التابعة لحركاتها ، وهو أثر حادث فى الهواء تابع لتصادم الأجسام بقوة ، ولا يزال ذلك الهواء المتأثر بذلك الأثر يتدافع[5] بكسب مجاوره[6] أثره حتى يصل إلى العُصب[7] المفروشة على الصماخ

---

(١) لطول (د) .

(٢) من العجيب أن يضع عبد اللطيف حاسة السمع بعد الطعم والشم فى الصدق والحاجة التمييز ، وهى أهم حاسة يعتمد عليها بعض الحيوانات لتنبه للخطر والحاسة الوحيدة التى تمكن الانسان من توجيه الزجر للحيوان أو أمره ، ومن أكثر الحواس تأثيرا على النفس والعواطف .

(٣) فى (د) .

(٤) الغائرة (د) .

(٥) سقطت (يتدافع) (د) .

(٦) مجاورة (د) .

(٧) لم يختلف البغدادى عن أرسطو (القرن ٦ ق . م) أو زينو Zeno مؤسس المدرسة الرواقية (القرن ٣ ق . م .) أو جالينوس أو بوثيوس Boethius (القرن ٥ ق .م .) أو فيلوبونوس Philoponos (القرن ٦ م) ، فقد وصف أرسطو الحركة الموجية وإن لم يستعمل لفظة الـ (موجة) إذ قال إن الدفع يثير دفعا آخر ، وتنتقل الحركة عبر الوساطة على هذه الطريق ، أى أن المتحرك الأول يرغم على التحرك دون أن يرغم هو ذاته (٤٦) أما زينو فقد استعمل لفظة (موجة) ووصف الحركة الموجية بأنها كرية قال : « ذبذبة على شكل كرة تشير موجات وتصادم الأذن ، كالدوائر التى تظهر فى ماء خزان إذا ألقى فيه حجر» ، وقال جالينوس : « وحركة الضربة (ضربة الهواء) تنتقل —

التى هى بمنزلة الرقّ على الطبل . وهناك موضع السمع وقوة الإدراك[1] وهذا الأثر الحادث فى الهواء المسمّى[2] عند إدراكه صوتا إنما هو دوائر أو قطع دوائر ، لأن الهواء بسيط لا يقبل ما كان من الأشكال ذا زوايا[3] ، ولئلا يختلف الإدراك ، لأن الزاوية ليست كالضلع ولا المدور كالمثلث والمربع والمخمس وغيره ، ولأجل ذلك ضعف إدراك قوة السمع[4] تمييز فصول مدركاتها ، وصارت نسبتها إلى حاسة البصر فى الإدراك والنقص عنها كنسبة حاسة الشم إلى حاسة الذوق فى الإدراك والنقص عنها . فلذلك لا يوجد لأنواعه وفصوله أسماء خاصة بحسبه ، بل مشتقة من أسماء أنواع مدركات البصر أو غيره من الحواس ، ومنقولة منها

« كالموجة وترتفع إلى المخ » . وأعاد بوئيوس التشبيه بالموجات التى يثيرها حجر فى بركة ، وكان فيلوبونوس أدق وضوحا إذ لاحظ المويجات التي تحدث فى كوب من الماء اذا استحدث فيه صوت بحك أصبع على حافته ، وقد عرف جالينوس فكرة الموجة تعريفا صحيحاً إذ قال إن الصوت ينتشر بانتقال تغير لطيف فى الهواء ، وليس بانتقال تيار منه (٤٧) ، كما قال ابن سينا فى الفن الرابع من الكتاب الثالث : « فاذا يأتى الموج الصوتى » إلى ماهناك أدركه السمع » .

(١) وضع البغدادى مركز السمع فى الصماخ ، أى فتحة الأذن التى شبهها برق على الطبل ، أما جالينوس فانه كان يعتقد أن التنبيهات الصوتية تصل إلى المخ مباشرة .

(٢) سقطت (المسمى) (د) .

(٣) انظر هامش (رقم ٧ ص ٨٣) وقد فسر عبد اللطيف الانتشار الكروى هندسياً .

(٤) أضيفت (عنه) (د) .

إليه كقولهم : صوت طويل وقصير ، وأصله فى السطوح المبصرة . وكقولهم : صوت طيب ولذيذ وبشع وكريه ، وأصله لحاسة الذوق ، وكقولهم : صوت خشن[1] ورخيم ونَدٍ وليّن وشديد وحار [2] وبارد وثقيل وخفيف ، وأصل هذا كله لحاسة اللمس ، وكذلك قولهم مضرّس ومثبّج وموشًّى ومدبّج[3] ، وكلام له ماءٌ [4] وعليه رونق ، وكله مستعار من مدركات البصر .

ويقال : كلام حلو وعذب ونغمة[5] كذلك . وقد ينقل[6] إليه العامّ كحاسة الذوق الذى هو جنس لها أو كالجنس ، فيقال : ذقت الكلام وذقت النغم ، وذلك إذا تأمّلت فصوله الخفية أو معانيه الغامضة. وقد يقال وزنت الكلام والنغم والصوت ، وألفيته موزونا ، وذلك إذا أمعنت فى تمييز مطابقة الكلام لمعناه ، أو فى تمييز فصول الصوت وتناسب النغمات ، وأصل الوزن لحاسة[7]

---

(١) منعش (د) .
(٢) فى الأصل (جار) ولا بد قصد عبد اللطيف (حار) .
(٣) مفهس و مبتـج (د) وسقطت : وموشى ومدبـج .
(٤) فى النص (ما) .
(٥) نغم (د) .
(٦) ينتقل (د) .
(٧) كحاسة (د) .

اللمس والبصر ، ولا يشتق لهذه الحاسة أعنى حاسة السمع أسماءٌ مما [1] لحاسة الشمّ لأن أسماءَ هذه الحاسة بعضها [2] منقول فلم يحتمل أن ينقل مرة أخرى .

وحاسة السمع فى الإنسان أقوى إدراكا وتمييزا لفصول الصوت من سائر الحيوان ، ولذلك صار يدرك حدود الحروف وفصول الكلام ويفرق بين أجناس النغمات ، فصار لذلك يفهم الكلام ويدرك اللحون والنغمات ويتعلم الموسيقى ويزداد تعجبه بالكلام والتذاذه به وطربه بالنغم وانفعاله عنها [3] ، إلا أن فصول النغم الموسيقية أخفى [4] إدراكا من فصول حروف الكلام ، لأن حاجته إلى فهم الكلام أشد من حاجته إلى الطرب [5] ، ولا حاسة أخص بالعقل وأجدى عليه [من السمع ، ولا حاجة أخص بالجسم وأجدى عليه] [6] من اللمس ، ولذلك كانت حاسة اللمس عامة فى الحيوان ضرورية [7] له ، وكانت

---

(١) كما (د) .

(٢) معظمها (د)

(٣) منها (د) .

(٤) أخف (د) .

(٥) الكلام (د)

(٦) سقطت من المقالة كل العبارة الموجودة بين المعقوفين .

(٧) ضرورة (د) .

حاسة السمع أخص الحواس ، وأخصها بالقوة الناطقة ، وكانت منفعتها فى الإنسان أكثر منها فى سائر الحيوان ، وكان حظّ الإنسان منها أعظم من حظّ سائر الحيوان[1] .

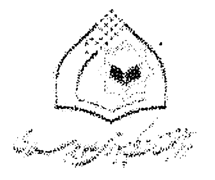
تم القول والحمد لله رب العالمين ، وصلواته على سيدنا محمد وآله الطاهرين ، وسلم كثيراً .

---

(١) قد تكون بهذا حاسة السمع أهم حواس الانسان وهو الحيوان الناطق ، إذ أن ملكة الكلام واستعمال الألفاظ ذوات المعانى المجردة آلة ضرورية لسياق التفكير ، وهى التى تميز بين الانسان والحيوان ، وقد أفرد البغدادى لهذا الرسالة الثانية إلا أنه فاته ذكر امكان تدريب الحيوان على تفهم بعض الألفاظ البسيطة . وهذا باب مهم من أبواب النحو هو باب أسماء الأصوات ، وقد قسمها السيد حسين إلى نوعين ، يهمنا منهما الأول ، قال المؤلف :
أولهما : الفاظ يخاطب بها الحيوان الأعجم، وما فى حكمه - كالأطفال - إما الزجر والتخويف ، رغبة فى ترك شيء ، وإما للحث على أداء أمر معين بمجرد سماعه أحد هذه الألفاظ ، دون حاجة إلى مزيد .
« إنما يتحقق الأداء بعد مدة يسبقها تكرار المخاطبة باللفظ ، وتدريب الحيوان على إنفاذ المطلوب منه عند سماعه، فيدرك - بعد التكرار الذى يصاحبه التدريب - المراد من توجيه اللفظ اليه - ومن مخاطبته به ، ويكتفى فى إدراك الغرض بسماع هذا اللفظ دون زيادة عليه . فمن أمثلة الزجر ما كان يوجهه العرب لبعض الحيوانات وأشباهها . . كزجرهم الأبل على البطء والتأخر فيقولون لها أحد الألفاظ الآتية : هيد، هاد . . . الخ .
ومن أمثلة ما يوجه للحيوانات ، لا بقصد زجرها ، وإنما بقصد تكليفها أمرا كى تؤديه وتقوم بانفاذه - قول العرب للأبل : . . . نخ إذا طلبوا منها الاناخة (٤٨) .

المقالة الثانية ومسائل

وقد تبعت المقالة الأولى في المخطوط نفسه ولم ينقلها سيادة الدكتور دبلوب ، ورأينا نشرها هنا لأنها لم تنشر البتة ، لعلها تفيد الباحثين ، مع تفاهتها والطريقة السطحية التي سلكها في تناول الموضوع .



بسم الله الرحمن الرحيم
رب يسّر

مقالة فى الحواس ايضا

للشيخ الامام ابى محمد عبد اللطيف
ابن يوسف بن محمد البغدادي
اكرمه الله برضوانه

قال : الحواس الخمس لكل واحد منها إدراك خاص . ومدرك خاص ، وجميع ذلك يشترك فيه الحيوان الناطق والأعجم ، وإنما يختلف بالأقل والأكثر والأقوى والأضعف سوى اللسان وحاسة السمع ، فإنَّ لكل منهما فعلاً يخص الناطق وحده غير فعله المشترك فيه ، وهذان الفعلان الخاصان أحدهما مبدأُ إفادة القوة الناطقة وهو اللسان فى تقطيعه الحروف ، ونظم الكلمات ، وتركيب القضايا والمقدمات ، والتعبير بهما عما حصل عند القوة الناطقة من العلوم والمعارف على طبقاتها ، وأما الثانى وهو مبدأُ استفادة القوة الناطقة ما حصل عند نظيرتها وتقدمتها بعلمه ، إما لقوة إدراك وجودة حَدْس ، وإما لإحساس انفردت به ، وإما لإلهام اختصت به ، أَو وحى أَو غيره من طرق العلم ، وذلك هو مجرى

السمع ، فإدراك السمع لجرس الأصوات المطلقة ، وتمييز خفيفها من ثقيلها ، وطويلها من قصيرها ، وقويها من ضعيفها ، مما يشترك فيه الحيوان ، وأما إدراك مقاطع الحروف والكلام وتَخَيُّلُ المعنى المقصود منه فهو فعل آخر يختص به الإنسان ، وإنما القابل لهذا الأثر المنبعث من القوة الناطقة على الإنسان هو حاسة السمع ، فهذان العضوان آلتان عظيمتان للقوة الناطقة ، ليس لها آلة بالذات وخاصة بها غيرهما ، فهما آلتان لها بما هي عاقلة وقائمة بذاتها ، وناظرة إلى ذاتها ، وسائر الأعضاء آلات لها بما هي في مادّة وناظرة إلى جسميها[1] ، وهاتان الآلتان إحداهُمَا مبدأ الإفادة والأُخرى مبدأ الاستفادة . وإحداهما آلة القبض ، والأُخرى آلة القبول ، وذلك لأن النفس عالمة بالطبع ، وبعض معلوماتها عندها بالفعل ، وبعضها عندها بالقوة ، فلكونها حكيمة تشتاق إلى تكميل ذاتها ولشوقها إلى تكميل ذاتها تشتاق أن تخرج فيما عَزَبَ عنها إلى أن تعلمه بالفعل ، فجعلت السمع طريق

(١) فى الأصل (جسمها) دون نقطتى الياء .

الاستعلام بالمعاونة ، ولكونها أيضا حكيمة ، آثرت الإفادة والإفضال بما حصل عندها من العلوم بالفعل ، فأفاضته على غيرها من طريق اللسان ، وقد يحصل باللسان اقتضاءٌ كما يحصل منه إعطاءٌ ، وقا يحصل بالسمع إدراك الاقتضاء كما يحصل منه إدراك العلوم المعطاة ، ولا ننكر أن لنا فى الحواس وسائر الأعضاء أصنافا من المعونات ، كما ينوب البصر عن السمع فى قراءة المكتوب ، واليد عن اللسان فى الكتابة ، وأعضاءُ الوجه واليد والرأس بالإشارة .

تم القول ، وبالله القوة والحول

وقال أيضاً : إنى أرى أن القوة النامية يبقى منها بعد الوقوف عند انتهاء النشء بقية صالحة للعدة والاستظهار بذلك المقدار يحصل جبر العظام . والأخلاف (؟) موضعها وموضع الجلد والعصب والعضل وغير ذلك من الأعضاء المولودة إذا قطع منها شئٌ ، وترى ذلك فى الهَرْمَى والذين قد وقف بهم النشء وفى المسلولين وغيرهم ممن خارت فيهم القوة الغاذية ، ومن هنا

يتبين لك أيضاً أن القوة النامية غير المغذية وذلك أنك ترى الواحد[1] منهما قوية ظاهرة الفعل مع ضعف الأُخرى ووَهْيِ فعلِها . ألا ترى الصبي المسلول أو المبطون ينشأ ويطول ، والشيخ الهرم يخصب بدنه ويعبل ، وترى أيضاً القروح تندمل ، والجراح تلتئم ، والعظام تنجبر في بدن المسلول[2] .

وقال أيضاً : هذه مسألَة من الطبيعيات لا تجدها في كتب القدماءِ وقد ذكرت أُعلتها (؟) فينبغي أن تضاف إلى أمثالها مما لهم ولنا .

مسألة :

ما بال المشايخ والهرمى مع ضعف القوة الهاضمة والغاذية في أبدانهم يكون شرههم أَزيد وطعمهم أكثر ، وشوقهم إلى الطعام الغليظ أكثر وربما مالوا إلى ما جمع بين الأَغذية بين الغلظ والدسومة كالهراس والرؤوس ، وربما مالوا إلى ما جمع بين الغلظ والحرافَة كالبصل والكوامخ ، وكان ينبغي أن تكون هذه الحال في الأَحداث أولى وأكثر ؟

---

(١) كذا ولعلها (الواحدة) .

(٢) أصاب البغدادي في فصله البدانة عن النمو ، والتئام الجروح عن السمنة .

الجواب :

إنه قد اجتمع فى أبدان المشايخ أسباب توجب الحاجة إلى ما غلظ من الأغذية وكثر ، منها ضعف القوة الهاضمة ، والمستخرجة الكيلوس من الغذاء كما يستخرج الزيت والبزر وسائر العصارات بالمعاصر ، فإذا ضعفت هذه القوة كان ما تخرجه من عصارة الأغذية أقل مما تحتاج إليه القوة المغذية ، فاشتاقت إلى غذاء أكثر لتستدرك به ما فاتها لضعيف الهضم والعصر ، وأما الشباب فلقوة حرارتهم وتوفر آلتهم يجود فى أبدانهم الطبخ فيتهيأ لقبول العصر فيستخرج منه البدن كيلوسا كثيرا بمقدار حاجته ، فيكتفى عن التزيد من الغذاء ، ويجرى ذلك مجرى ما ينعم من النبات فيسهل عصره وتكثر عصارته ، ففى أبدان الشباب والأقوياء يستخرج من المطعوم القليل غذاء كثير وفى أبدان المشايخ والهرمى يستخرج من المطعوم الكثير غذاء قليل ، ويجرى ذلك فى ضرب المثال مجرى عصارة فى يدى قوى وضعيف ، فإنها فى يد

القـوى تكون أكثـر منهـا فى يد الضعيـف ، والمعصار الرخـو أيضاً يخـرج من تحتـه عصـارة أقـل ممـا يخـرج عن المعصار الشـديد ، ولذلك تجـد الضعيفى الهضم وأربـاب زلق الأمعـاء يخـرج منهم الغـذاءُ ولـم يتغير ولا استحال ، أو استحـال استحـالة يسيرة ، لأن آلات الغذاءِ تَهِـى أن تشتمل على الغـذاءِ فتحيله ، والذى يعـرض للمشـايـخ فى هضومهـم شبيـه بهذه الحال ، إلا أنه أمـر طبيعـى [1] . ومنهـا أن أبدانهـم يابسـة سوداويـة ، والغـذاءُ إنمـا يـكون بالملائـم ، فلـذلك يشتاقون من الغـذاءِ إلى ما كان ملائماً لأبدانهم كما يشتاق الصبيان إلى الأغـذية الرطبـة والألبان ، والشبان إلى الأغـذية الحـارة كالخمـور واللحمان وذلك للملاءمة [2] فإذاً الملائم لأبدان المشـايـخ من الأغـذية ما كان غليظاً كالهـراس والرؤوس ، ومنهـا أن معـد المشـايـخ ضعيفة الحرارةمائلة إلى البـرد ، والمعِـد التى بهـذه الصـفة من شـأنهـا أن يطفـو فيها الطعام اللطيـف ويفسد ويستقـر

---

(١) كان الأجدر أن يتطلب ضعف القوى الهاضمة طعـاما خفيف الهضم ولـكن البغدادى ترك هنا العنان لميوله النظرية ووضع تشبيهات لا تنطبق على الانسـان .

(٢) عاد البغدادى فطبق نظرية الأخلاط والطبائع بحيث تتفق وأقواله .

فيها الطعام الغليظ ويصلح ، فلذلك مال المشايخ إلى الطعام الغليظ لجودة استمرائهم له . ومنها أن الجزء السوداوى الحامض الذى يصبّه الطحال إلى المعدة وهو المحرك داعية الجوع هو كثير المقدار فى المشايخ لغلبة السوداء على أمزجتهم فيشتاقون إلى الغذاء الغليظ لمقاومته هذه الفضلة وكسره من سورتها ، ويشتاقون أيضاً إلى الكثير منه لقوة تقاضى داعية الجوع التى يحركها هذا الفضل السوداوى ، وهذا شبيه لما يعرض فى الشهوة الكلبية . ومنها أن التحلل فى أبدان المشايخ كثير جدا ، خلاف ما عليه الصبيان ، فإن النمو فى أبدانهم أكثر من التحلل ، فلما كان التحلل فى أبدانهم كثيرا جدا اشتاقوا إلى غذاء غليظ يستعصى على التحلل [1] ، وإلى كثير رجاء أن يخلف ما تحلل ، وقد يعرض شبيه بذلك للناقهين وللذين نهكت [2]

---

(١) إن الذهن يحار فى ماهية السوداوية المزعومة التى يصبها الطحال فى المعدة وقد أخذ بها أساتذة مدرسة الأخلاط دون أى سند ، والغريب فى أقوال البغدادى أن الهرمى يشكون عادة قلة الشهوة وأنه يقع على الطبيب إثارتها ليتمكنوا من تعويض ذوبان أنسجتهم ، أما الشهوة المرضية التى يتميز بها بعض الشيوخ فان مردها إلى ضعف فى القوى العقلية .

(٢) هذه هى الكتابة التى كانت صواباً فى أصل المخطوط . وجاء أحدهم بخط مخالف فغيرها إلى (انهكت) .

أبدانهم فى المجاعات ، فالصبيان يشتاقون إلى كثرة الغذاء لقوة هضومهم باشتعال الحرارة الغريزية ، ولشدة حاجتهم إلى النمو . والشباب يجتزئون[1] بالعلقة لاستيلاء آلة الهضم على ما يشتمل عليه وقوة العصر وكثرة الكيلوس المستخرج من الغذاء القليل ، ولوقوف النشء ، وأما المشايخ فيحتاجون إلى كثرة الغذاء لكثرة التحلل من أبدانهم وضعف هضومهم وضعف العصر وقلة الكيلوس المستخرج من الغذاء الكثير ، واشتياق الصبيان إلى الرطب من الغذاء والشبان إلى الحار ، والمشايخ إلى الغَليظ للملاءمة ، وأما اشتياق المشايخ إلى الدسم من الغذاء فيكسر سورة السوداء ، ويلين ما قحل من الأعضاء . وأما اشتياقهم إلى ما فيه مع الغلظ حرافة وتقطيع فليقاوم الخلط اللزج المتولد فى أبدانهم ويقطعه ويسهل سبيله ، وهذا تفعله الطباع على جهة التداوى فإنه كما تشتاق إلى الملائم فى الغذاء قد تشتاق إلى المخالف فى الدواء كما يشتاق الشباب إلى الحامض على جهة التداوى عند غلبة الصفراء على

---

(١) كتبت (يجتزون) .

أمـــزجتهم[1] ، وكما يشتـــاق الصبيان فى بعض الأحايين والمبطونـــون إلى الطعـــوم المالحـــة على جهـــة التداوى عند غلبة البلغم على أمزجتهم، فما يفعل على جهة الغـــذاء فدائم ، وما يفعل على جهة الدواء فحينا بعد حين ، وبحسب الحاجة.
فهـــذا منتهى القول على هذه المسألة والحمد لواهب العقل .

(مسألة) :

وقـــال أيضـــاً : مسألة أخـــرى طبيعيـــة من قبيـــل ما سبـــق ، لم نـــرهـــا للمعلم الأول ولا لغيـــره .

مـــا بـــال الخـــائـــف إذا هـــم بالفـــرار ، تـــرك وطبعـــه أخـــذ ناحيـــة اليسار إلا أن يصدفه عن وجهتـــه أمـــر عارض من خارج أو من داخـــل ؟

الجواب :

لأن الخـــوف ضـــد الغضب والإنسان يتحـــرك عنـــد الغضب إلى جهـــة المؤذى طالبا للانتقام ، ومبـــدأ حـــركة النقلة من جهـــة اليمين ، وإذاً مبـــدأ حـــركة الغضبـــان من جهـــة اليمين ، وأما عند الخوف فإنه يتحرك عن جهة

(١) ميز عبد اللطيف بين الطعام والدواء ، مدعيا أن الجسم داخل على الطعـــام ومدخول عليه من الدواء .

المؤذى طلب النجاة ، فينبغى أن يتجمع ويميل إلى ضد جهة الحركة نحو الغضب ، وذلك هو جهة اليسار أيضا ، فإن الكبد فى الجانب الأيمن ، فهو لذلك أسخن من الجانب الأيسر ، ومع الغضب تشتعل الحرارة وتنتشر وتكون الحركة من الجانب الأسخن وإليه ، لأنه مبدؤها ، وأما عند الخوف فإن الحار الغريزى يتحرك ويكمن نحو الباطن ، والجانب الأيسر أبرد ، فتكون الحركة إليه لذلك ، لأن الحار الغريزى والروح النفسانى يتحرك نحو الباطن ، وإلى الجانب الأبرد ، فتكون حركة الأعضاء تابعة لحركة الروح ، [وأيضاً [1] فإن الرجل اليمنى هى العمدة فى النقلة وأما اليسرى فهى العمدة فى الثبات ، فإذا أراد المتحرك أن يتحرك بطبعه استعمل العضو الذى هو أشد مواتاة فى الحركة وفى أيسر الجهات ، وهذا هو الجانب الأيسر . ولو تحرك إلى الجانب الأيمن لأثبت اليمنى وحرك اليسرى وهو خلاف ما فى الطباع] [2] والله أعلم .

---

(١) ما بين المعقوفين زيادة فى الهامش بخط يختلف عن الخط الذى كتب به الأصل .

(٢) لقد أصاب إذ قال : « والله أعلم » فما باله بمن يستعمل اليد اليسرى والقدم اليسرى : ومن أين أتى بهذه المزاعم ؟

مسألة اخرى :

وقال أيضاً لم صار من يأكل السمك الطرى يعطش كثيرا أكثر من عطش من يأكل السمك المملوح وغيره من الأغذية الحارة وأكثر من عطش من يأكل الأغذية الباردة الرطبة كالخيار والبطيخ واللبن مع أنا نجد كثيرا من الأغذية الباردة من شأنها تسكين العطش كالمشمش وغيره من الفواكه الرطبة ، وكالملوخيا والبزرقطونا وغيره من الألعبة ، ونجد كثيرا من الأدوية والأغذية الحارة تسكن العطش كالنعناع والسعتر وغيره [1] ؟

الجواب :

إن السمك قد اجتمع فيه عدة أسباب لم تجتمع فى غيره ، منها أنه غذاء بارد رطب ، وأنه لزج ، وأنه غذاء صالح تعشقه الأعضاء وتشتمل عليه آلات الغذاء ، فإذا أخذ فى الانهضام ، ووصل إلى فوهات المجارى ، ملأها بغذائيته المتوفرة ، وسادها بلزوجته ، واحتوت عليه لملاءمته فتضايقت لذلك كله فعدمت

(١) من الغريب أن يقال إن السمك المملوح يعطش أقل من السمك الطرى وإن أكثر من يعطش من يأكل الخيار والبطيخ واللبن . وهذا خطأ بين ، إلا أنها أقوال اقتضتها لتلائم التفسيرات القائمة على القضايا الموضوعة مسبقا .

التنفس ، واختنقت فيها الحرارة والتهبت واشتاقت إلى الماء لتعدل حرارتها وتطفئ التهابها ، ولترقق هذا الغذاء اللزج فيسهل تنفيذه . فإذا ورد الماء والحال هذه طفا فوق هذا الغذاء ومنعه بلزوجته من الوصول إلى محل الحاجة وحيث الحرارة ملتهبة . وربما ازدادت لزوجته عند اختلاطه بالماء ، وسخن الماء بحرارة المعدة . فازداد العطش لذلك . ولا يزال العطش فى تزيّد حتى يستولى القوة الهاضمة وتدفع الدافعة وتنفتح المجارى وتتنفس الحرارة فحينئذ يسكن العطش .

وأما الخيار ونحوه فإنه وإن كان باردا رطباً فإنه قليل اللزوجة ، قليل التغذية ، لا تشتاقه الأعضاء ، ولا تجذبه بسرعة ، ولا تحتوى عليه بعناية .

وأما الخبازى والملوخيا ونحوهما فإنه وإن كان كثير اللزوجة فإن آلات الغذاء لا تحتفل به ، ولا تهش إليه لقلة غذائيته ، ووتاحة [1] جوهره ، وهى فى أول وهلة تعمل الحيلة فى دفعه عنها .

---

(١) الوتاحة : القلة .

وأشد من هذا فيما ذكرنا الألعبة ، فإنها لكثرة لزوجتها تزلق عن آلات الغذاء بسرعة ، ويعجزها الاحتواءُ عليها ، مضافاً إلى قلة الاحتفال وعدم الملاءمة ، ومن شأن ما ليس بملائم أن يكون بالدواءِ أشبه منه بالغذاءِ ، والدواءُ فعله فى البدن أقوى من انفعاله . وأما الغذاءُ فانفعاله أكثر وأقوى .

فالسمك لكونه غذاءً تسبق القوةُ فتفعل فيه ، والألعبة لكونها دواءً تسبق القوةَ فى الفعل[1] ؛ فلذلك يحصل منها التبريد والترطيب ، وأيضا فإن كثيرا منها ومن الفواكه الرطبة تضعف القوة الهاضمة ، وترخى المعدة وآلات الغذاءِ ، وهذه الأسباب يتبعها قلة العطش .

وأيضاً فإن السمك دم بالقوة القريبة يغذو البدن غذاءً صالحا كثيرا حارا رطبا ، وإنما يقال إن غذاءه قليل وبارد بالقياس إلى لحم المواشى ، وأما بالقياس إلى البقول والفواكه ونحوها فإن غذاءه كثير جدا على الإطلاق ، حار بالقياس إلى الباردة منها .

---

(١) انظر هامش ص ٩٩ .

وأما العلة فى أن كثيرا من الأغذية الحارّة تسكن العطش فلأن هذه بحرارتها تقطع البلغم وتلطف الغذاء ، وتفتح المجارى وتنفذ ما فيها ؛ فيسكن لذلك العطش الكائن عن انخناق الحرارة ، والكائن عن عفن البلغم وسخونة الرطوبة اللزجة ، والكائن عن ضعف الهضم التابع لثقل الغذاء وغلظه .

وأما السمك المملوح فإنه يكتسب من الملح التقطيع والتنفيذ والتجفيف وسرعة الانحدار .

تمت المسألة ولواهب العقل الحمد كما يستحق .

مسالة اخرى :

ما بال الذين تنتهك أبدانهم فى المجاعات إذا صاروا إلى الرفاغية[1] والخصب تعبل[2] أجسامهم . وتحسن ألوانهم وتعتدل أعضاؤهم أكثر مما كانوا عليه أوّلاً ؟

(الجواب) :

ذلك لأن أبدانهم عندما تنتهك بالجوع تتخلخل وتنفتح مسامّها وإن كان فيها أخلاط غليظة قد كانت تمنع وتعوق سيلان الغذاء إلى الأعضاء تذوب وتضمحل ،

---

(١) الرفاغية والرفاغة سعة العيش والخصب والسعة .

(٢) تعبل : تغلظ .

وإن كانت أيضاً الأعضاءُ والمجارى قبـل الجوع مسترخية مترهلة جفّت وصلبت وقويت عنـد المجاعة ، وإن كانت الطبيعة قبل المجاعة غير حريصة على جذب الغذاءِ وإصلاحه لطمأنينتها به ، وثقتهـا بتيسّر وصوله ، أو لضـرب من الملل اعتـراها ، صارت لما نالهـا من المجاعة حريصـة على جذبه ، غيـر واثقة بدوامه ، نشيطة مستيقظة مستريحة ، فلاجتماع هذه الأسبـاب يحصـل لهـم عنـد الرفاغية والخفض من العَبالة وحسن الحال أكثـر مما كان قَبْلُ ، ومنهم من قد كان مسقاما فصـحّ بدنه بالمجاعة ، ويجـرى ذلك مجـرى الحِمْيَةِ ، وقد يفعل نحـو هذا الفعل بالحيوان الذى يقصد تسمينه . كالدجاج والغنم ، فإن الدجاج إذا جوّعت[1] ثلاثة أيام وسـقيت ماءَ السُّمَّاق[2] ثم علفت سمنـت فى مدة قريبـة .

مسالة اخرى :

لم صار بعض من ينقه من المرض يعبل ويحسن حالـه بحيث يصيـر أفضل مما كان عليـه قبـل المرض بمقدار

---

(١) فى الأصل « عوجت » وهو سبق قلم بوضع العين موضع الجيم .
(٢) السماق شجر له ثمر حامض يطبـخ .

كثيـــر ، وبعضهم يبـــقى على سوء الحال زمانا طويلا . وربما لم يرجع إلى حال الصحـــة الفاضلة ؟

(الجواب) :

لأن الطبيعة عند المرضى تنهض لدفع الفضلات الرديئة فتنفتـــح لهـــا المجـــارى ، وتتـــوســـع لما يسيـــل فيهـــا ، فينقى البدن مما كان يعـــوق الغذاء عن سرعة النفوذ وجودة الانهضام .

وأيضاً فإن الأعضاء فى أوقات المرض تقحـــل وتتخلخل فتقبل الغـــذاء عند التوجّه إلى الصحـــة قبـــولا فاضلا . ويتنـــزل ذلك منـــزلة الأجســـام التى يبست حـــتى قحلت . فإن قبولها للترطيب بالماء والانتفـــاع به أسرع ، لأن الماء يصادف المسامّ واسعـــة فيجـــوز فيهـــا بسرعة وسهولة .

وأيضاً فإن من شأن الطبيعة أن تـــكسل فى بعض الأحايين عن دفع المرض اليسير ، فإذا تفاقم اضطرت إلى دفعـــه ، ونهضت لذلك بحـــرص وكلف ، ولم يسعهـــا إهماله ، فإذا أبرأته برئ فى ضمنـــه المرض اليسير ، وأيضـــا فإن بعض الأمراض قد يـــكون سببا لشفاء مرض آخر ، لأن الأمراض فيهـــا ما يتضـــادّ ، فإن من كان به فضلة بلغميـــة فى بعض

أعضائه ، ثم عرضت له حمّى ، أنضجت تلك الفضلة وحللتها تحليلا لا تبلغه الأدوية ، فإذا اتفق أن اندفع المرض الأول بالمرض الثانى صار البدن عند النُّقُوهِ صحيحاً سليماً ، ليس فيه قلبة ، فلذلك يصير أحسن حالا منه قبل المرض .

مسالة اخرى :

ما بال الترويح يبرد الهواء مع أن الحركة من شأنها التسخين ؟

الجواب :

لأن من شأن الجسم الرطب المتخلخل إذا تحرك أو سخن قَبِلَ البرد بسرعة ، وكذلك الماء المغلى إذا جُعل تلقاء الريح والنسيم برد سريعا ، والهواء الذى نحن فيه إنما هو بخار رطب ، فإذا كان حارًّا وحُرِّك بالمراوح قَبِل البرودة بسرعة ، ولذلك إذا كان ريحا سموميا متحركة جدا لم يبرد بالترويح ؛ لاشتمال الحرارة واليبس عليه من سائر جهاته ، وصار هذا كهواءِ الكِير إذا حرك بالمنافيخ ، فإنه يزداد حرارة والتهابا ، ولذلك صار الترويح الرُّوَيْدُ يُبْرِد أكثر من الترويح بقوة وسرعة ، لأن

الحركة من شأنهـا أن تسخـن بالذات ، وإن كانت عند الترويـح تبـرد بالعـرض ، فإذا حرّكت المراوح بسرعة سخـن الهـواء بقـوة الاصطكاك بالذات أكثر ممـا تبرد ولأن الحـركة القوية من شـأنها أن تسخن وتجـف فيصيـر الهواء فى حد طبيعـة النار ، فإذا حُرِّكَت المراوح برفق سخن بالحـركة يسيـرا وبرد بالتخلخل بردا كثيرا ، وإذا أفرطت الحركة فى السرعة أحدثـت النار فى الأجسام القابلة للاشتعـال ، كما يُوجد النجار النارَ بالمثقب . وأهل البادية من الشجر الأخضر ، وقد يوجد من قوة النفخ كما يفعـل الحدّادون فى الـكير .

مسألة :

هل يَنْمِـى الحيـوان والنبـات فى جميـع أوقـات النمـو والنماءِ على وتيـرة واحدة أو يختلف ؟

الجواب :

أما فى جميع أوقات النماءِ فلا تَنِى الطبيعة فى فعلها ، لكن فى بعض تلك الأوقات يظهر من النمو مقدار أكثر وفى بعضها مقدار أقل ، وفى بعضها لا يكاد يظهر ، وقد يتقدم بعض هذه الأوقات فى الناميات على بعض ، وفى غالب الحال تلزم

ترتيبا ونظاما ، وقد لا تلزم ذلك . ويجرى الأمر فيه مجرى الحار[1] من الأمراض فإنك تجد ما بين البحرانين سكونا من الطبيعة وفتورا بحيث يحسبها الجاهل بشأنها ذاهلة ، وإنما هى فى تلك المدة تعد المادة وتهيئها وتكمل نضجها حتى تظهر ما كان بالقوة إلى الفعل ، إما دفعة أو شبيها بالدفعة ، فإن وقع فى فعلها خلل فإنما هو على خلاف ما تقتضيه سجيتها ، أو لاستعصاء فى المادة فيظهر من الفعل ، أو لسرعة مواتاة ، فيظهر من الأثر أكثر من الفعل ، وقد يكون لعائق من خارج وأمر عارض ، وإذا كان الفعل حسب الانفعال وارتفعت العوارض جرى الأمر على ترتيب ونظام إلى منتهى السكون والنماء .

مسالة اخرى :

ما بال أرباب الحرف تَثْفَنُ[2] أعضاؤهم فى الموضع الذى يماس الآلة التى يزاولون بها الأعمال ، نحو النجار والخياط والحداد وأصناف هؤلاء ؟ .

---

(١) أو الحاد :

(٢) ثفنت تثفن ثفنا : غلظت من العمل .

الجواب :

لأن الآلة إذا باشرت العضو مرات سحجته وكشطت جلدته وآلمته ، فالطبيعة إذ ذاك تدفع إليه فضلة يصلح بها الموضع المتألم ، ويجعلها أيضاً عوضاً عما تحلل منه ، ثم إن العضو بحرارته يجذب إليه أكثر مما جَرَتْ به عادته ، فإنْ كَفَّ المرءُ عن الفعل اقتصرت الطبيعة على إصلاح العضو فقط وردّه إلى ما كان عليه ؛ وإن كرّر الفعل ودام عليه بعثت إلى ذلك العضو بعناية شديدة فضلة غليظة لزجة أَرضية تُغَشِّى الموضع وتُوَقِّيه من مصادمات الآلة بحيث يقاوم بصلابته صلابَةَ الآلة . وتفعل الطبيعة ذلك فى المتجددات العارضة ، كما تفعله فى الأُمور الطبيعية اللازمة ، فإنها تجعل كل عضو مستعدّا لما خُلِق له وأُهِّل لمباشرته ؛ وتفعل ذلك فى الأَعضاء الباطنة والظاهرة جميعا ، كما يفعل ذلك فى الكبد والطحال والقلب والرئة والدماغ والأَغشية والأَعصاب والعضل والعظم وغير ذلك ، وكما يفعل فى ثفنات البعير وحوافر الخيل والحمير ، وتغايظ جلدة الكف والقدمين ، وترقيق جلدة الإبْطَين وغير ذلك مما أَثرَ العناية فيه ظاهر (تمت) .

مسالة اخرى :

ما الفرق بين الآلة الصناعية وبين الآلة الطبيعية ؟

(الجواب) :

أمّا الآلة الصناعية فإنها تكِلّ وتبلَى وتضمحلّ بحسب مداومة العمل ، فيحتاج لذلك إلى استئناف شحذ واتخاذ من رأس .

وأما الآلة الطبيعية فإنها تشحذ وتقوى بمداومة العمل كما تجد أعضاء المترفين ضعيفة ، لقلة استعمالها وتجدها فى أرباب الكدّ قوية لكثرة استعمالها ، وسبب ذلك أن الآلة الطباعية لها مدد من الطبيعية ورِفْد يأْتيها من قِبَلها أوّلا فأوّلا ، كأنّه أجرة عن عملها ، وعوض عمّا تَحلّلَ منها ، ثم إنه يأْتيها من الفيض أكثر مما تحلل منها ، فتبقى منه عدّة عندها تقوى به وتتساند إليه .

وأما الآلة الصناعية فمنقطعة المدد ليس لما يتحلل منها خلف .

مساله اخرى :

ما بال[1] بعض الصبيان يكون عَبْلاً رطب البدن فإذا

---

(١) فى الأصل مال بال .

أيفع أو صار فى سن الشباب فحلت جلدته وردؤت سحنته وبعضهم بالضد ؟

الجواب :

إن ذلك يعرض إما من قبل الفاعل وإما من قبل القابل ، فإن القوة المغذية قد يعرض لها أن تخور وتفتر ، إما لضعف موضوعها من المولد أو لعارض عرض بعد ذلك ، وقد يكون ذلك من قِبَل فناءِ رطوبة أوقلتها ، أو انسداد بعض المجارى أو ضيقها ، أو أغذية رديئة انتقلت إليها ، أو أهوية ، أو مياه كذلك ، وربما كان لرياضة فاسدة مجففة ارتكبت ، أو طروءِ بعض عوارض النفس ، وقد يعرض ذلك للمراضيع بعد ما وُلِدُوا سمانا[1] للعلل التى ذكرناها ، ولرداءة لبن الرضاع ، أو لمرض المرضع وقد يكون ذلك لفساد عضو من الأعضاءِ الرئيسة أو الشبيهة بالرئيسة[2] ، وأنت إذا تأملت حالتى الإنسان فى خصب بدنه وقحولته ، ودققت النظر فلن يخفى عليك

(١) كتب الناسخ بعض الحروف بعيدة عن كلمتها فقد جعل أحرف (ولد) آخر السطر وكمل اللفظة فى السطر الثانى هكذا : « واسمانا » ولم يضبط الكلمة كعادته فى الكتاب .

(٢) استعمل كلمة الرئيسة بدل الرئيسية وهى الصواب قياسا ، أما « الرئيسية » فان استعمالها محدث .

السبب فى ذلك ومن أين أتى ، فإن كان من قِبَل أمر مولود فلاسبيل إلى استرجاعه ، وإن كان لأمر طارئ أمكن إصلاحه . وأما من ولد ضاويا مهزولا ، فعبل وحسنت حاله ، إما فى سنّ الصبا أو فى سن الشباب فأسبابه ضد هذه الأسباب ، وعلى الجملة فإن السمن وحسن الحال يكون لكثرة الغذاءِ وجودته إذا ضادّ ، فالقوى الجاذبة والهاضمة والغاذية موفورة ، والأعضاءُ مشتاقة معتدلة والمجارى واسعة مفتحة ، والهزال وسوءُ الحال يكون لضد ذلك ، فقد يتفق أسباب السمن للجنين ، فإذا ولد أعوزه بعضها أو كلها فيهزل كذلك ، وقد تعوزه هذه الأسباب أو بعضها فى الرحم ، فإذا ولد استدفّت[1] له فسمن وقد تستدف له بعد الفطام أو عند البلوغ وانتقال السن ، لأن الطبيعة فى ذلك الوقت تنهض نهوضاً مستأنفاً ، وقد يعرض ذلك فى سن الشباب أو الكهولة لحصول أسبابه ، وقد يحدث السمن وحسن الحال فى أثناءِ العمر للانتقال إلى أغذية ملائمة أو إلى رياضة موافقة أو إلى هواءٍ أو ماءٍ كذلك ، أو

---

(١) استدف : تهيأ وأمكن واستند واستقام .

إلى فرح أو نحوه من عوارض النفس ، وقد يحصل السمن بعد الهزال عند التنقل فى الأسباب لسبب آخر ، فإن الهزال قد يكون لإفراط الحرارة من المزاج وقوة تحليلها وتفتيحها المسام ، وإذابتها الشحم واللحم ، فإذا انتقل من سن الشباب الذى من شأنه الحرارة إلى سن الكهولة نقصت الحرارة عن الإفراط وفترت وصارت فى حد الاعتدال أو البرد ، فقلّ التحلّل ، وضاقت المسام ، وصار للغذاءِ مُكْث فى الأعضاءِ فتربى اللحم وجمد عليه السمن[1] والشحم ، وقد يكون الهزال بسبب كثرة رطوبة المزاج وتسديدها المجارى ، وإضعافها القوى ، فيكون التحلّل بسبب الرطوبة كثيرا ، ونفوذ الغذاءِ المخلف عما تحلل لضيق المجارى قليلا ، ويكون ذلك فى سن الكهولة أو الصبا مثلا ، فعند نبات شعر العانة ، والانتقال إلى سن الشباب تلتهب الحرارة الغريزية ، وتستولى فتجفف الرطوبات ، وتذيب العضلات ، وتوسع المجارى ، وتجذب بقوتها الغذاء إلى الأقاصى فيخصب البدن حينئذ ويحسن حاله .

---

(١) فى الأصل : السمين .

وأما المشايـخ فكثيرا ما حصـل لهـم السمـن عنـد التـوسـع وقلة الحركة والتصرف، وأما إذا حصل لهـم الهزال فإنما هـوليبس المجارى ونحـول الأعضاء الأصلية وضعف القـوى الطبيعيـة .

وأسبـاب السمن والهـزال تختلف فى الناس ، فلذلك اختلفت حالهم . ومع تأمل الحـزى[1] يتضـح سببـه الخاص بـه .

مسالة اخرى :

لم صار بعض الناس ينمى فى حـد الطفـولة كثيـرا سريعـاً ثم يـكاد يقف فى سن الصّبَا والشباب وبعضهـم يولد قميئاً[2] ويعـرض له النمـو الـكثيـر إمـا فى سن الطفـولة أَو فى سن الصبـا أو فى سن الشبـاب وبعضهـم يـكون نموه منذ ولادته إلى آخـر زمان النشء على أحوال متنـاسبـة ؟

الجواب :

إن هذه الحال إنما تـكون من قبـل الفـاعل والقـابل

---

(١) حزى الشىء حزيا : قدره وحزى الطير أطاره ليرى أى جهة يتجـه فيتفاءل أو يتشـاءم والحازى الذى ينظر فى الأعضاء يتكهن .

(٢) القمـىء : الذليـل الصغير .

المولود من أول التكوين ، فإن البزر إذا كان كثير الرطوبة متخلخلا قليل الأرضية ضعيفها انقاد للقوة النامية بسرعة ، وفعلت فيه غاية إمكانها حتى تستنفذ مادة النمو أو معظمها ومادة قوتها أو معظمها ، ثم تخور وتفتر ، فلذلك تجده ينمى فى ابتداء زمن النشء أكثر مما ينمى فى وسطه وفى آخره ، وبعض البزر يكون حاله بالضد ، أعنى أن يكون قليل الرطوبة كثيفها ، كثير الأرضية صلبها ، فيستعصى على القوة النامية ولا يطيعها إلا طواعية ضعيفة ، فإذا تمادى الزمان حصل للمادة ضعف من النضج وانقادت للفاعل فظهر لذلك أثر النمو .

وأما الذى نموه متناسب فى جميع أوقات النشء فهو المعتدل المادة ، وتجد ذلك فى أنواع الحيوان والنبات . فإن الفرّوج ينمى أسرع من الفرخ ، والفرخ يتأخر نموه ، وكذلك تجد اليقطين والقثّاء ونحوه ينمى أسرع من النخل ونحوه أوّلا . ثم النخل بأَخَرَةٍ ينمى أكثر منه كثيراً وكذلك كل ما كان من النبات فى ابتدائه سريع النمو كان فى آخره بطىء النمو سريع الذبول ،

وما كان فى ابتدائه بطىء النمو كان فى آخره كثير النمو بطىء الذبول . وبعض الحيوان يلد ولدا ناقصاً ثم يتّم تشكيله خارجا ، كاللبوة فإنها تلد بضعة لحم[1] ، فإذا مسحته بلسانها ظهر تخطيطه وتم تكوينه .

ومما يولد ناقصا ثم يتّم خارجا أصناف البيض ، فإنه يتّم خارجا ، إما بحرارة من الأُم ، أَو بحرارة الهواءِ .

ومن الحيوان ما يبيض داخلا ثم يلد خارجا كالأَفعى .

مسالة اخرى :

لم صار بعض الصبيان قبيح الصورة قميئاً سمجا فإذا هو الْتَحَى حدث له نموّ وجمال واعتدال ، وبعضهم بالضّدّ ، وبعضهم يكون فى الحالتين على حالة متناسبة ؟

الجواب :

إن القبح إنما هو عدم تناسب الأَعضاءِ ورداءَة السحنة وقلة النضارة .

وأَما القماءَة فهى مَحْق الخَلْق ، ونقصان النموّ . والحسن : اعتدال الأَعضاءِ وتناسبها ، والنضارة

(١) البضعة : القطعة .

وجَوْدة السحْنة ، وأما الجمال فهو عظم الصورة لتناسب الأَعضاءِ وتمام حسنها ، وقد يعرض لبعض الصبيان القبح لعدم التناسب ورداءَة االسحنة وقلة النضارة ، وتعرض له القماءَة لضعف النمو ، فإذا راهق والتحى حصل له باللحية اعتدال وتناسب وسترت من الأَعضاءِ ما كان شَيْنا وسبّب القبح ، ثم حصلت له النضارة بحسب سن الشباب ، فإنها سنّ من شأْنها أَن تولد الدم وتغلب فيها الحرارة وتقل الرطوبة ، ويحدث الجمال بالنمو الكائن عند الإنبات ، مضافا إلى التناسب الحاصل باللحية مع النضارة .

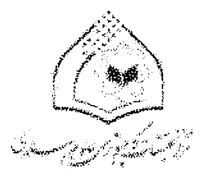
وبعض الصبيان يكون معتدل الشكل حسن الصورة ، فإذا التحى اختل التناسب ، ونقص الاعتدال ، وتعرض له القماءَة لفتور من القوة النامية ، أَو نفاذ من المادة القابلة كما ذكرنا ذلك آنفا .

وأَما الذى تكون أَحواله متناسبة فى الحالتين جميعاً فهو الذى أَحواله متناسبة فى الجودة أَو فى الرداءَة .

واعلم أن كثيراً ما تجدّد الحسن والجمال عند الإنبات وبعده لسببين سوى ما تقدم : أحدهما أن تكون أمراض ممكنة فى بعض الأعضاء أو فى المزاج نفسه ، فإذا نهضت الطبيعة عند البلوغ ، وتنبهت ، قويت على شفاء تلك الأسقام ، وتصحيح تلك الأعضاء ، فعاد البدن حينئذ إلى اعتداله ، فحسنت لذلك حاله .

والسبب الآخر أن يكون المزاج المولود كثير الرطوبة فيترهّل لذلك البدن ، وتضعف الأعضاءُ وآلات الهضم ، ويتكدّر الدم ، ويسحج اللون ، فإذا انتعشت الحرارة الغريزية بسنّ البلوغ ، ونهضت لتكميل انفعالها ، وانتقال المزاج إلى سنّ الحرارة واليبس صلبت الأعضاءُ وقويت ، وجادت الهضوم وحسنت واعتدلت الأخلاط ، وراق الدم ، وصفت البشرة ، وحسنت الصورة .

تم بحمد الله وعونه



الباب الخامس

رسالة فى المرض المسمى ديابيطس[1]

وردت هذه الرسالة ضمن مجموعة المخطوطات التى أشرنا اليهـــا في الباب الثانى من هذا المؤلف تحت رقم ١٢ ، ونشر العالم الألمانى (ثيس) صورة شمسية منها[2] . مشفوعة بمقدمة قيمة ، ومذيلة بتعليقـــات في غاية الدقة والتحقيق . وتناول في دراسته ما ذكره علماء الإغريق والعرب عن هذا المرض من قبل . وقارن هذه الأقوال بما جاء في الرسالة ، وبحث في الأصول التى استقى منها عبداللطيف معلوماته ، وقد استمددنا منه مادة الكثير من تعليقاتنا بعد التحقق منها .

وكتبت الرسالة بخط شرقي جميل يشابه خط رســالة (الإفادة والاعتبار) ،

---

(١) ديابيطس أوديابيطا ، اسم مرض البول السكرى كما عربه نقلة العرب عن اليونانية ، ومعنى هذا اللفظ بهذه اللغة عبور السوائل ، أو كما قال العرب عبارة البول ،ولايشير هذا الاسم الى وجود السكر ، بل لم يذكر العرب هذه الظاهرة ، وإن قال ابن سينا مستنكرا إن البعض يتذوق البول عند فحصه . والفضل فى هذا الكشف يرجع الى الصينيين ، الذين -- فى القرن الثالث الميلادى — لا حظوا أن حلاوة البول تجتذب الكلاب . وبعدهم الى أطباء الهند ، الذين — فى القرن السادس — سموا المرض « بول العسل » لحلاوة هذا السائل ولزاجته . أما فى الغرب فان أول من أشار الى هــذه الظــاهرة (وليس) Willis ، الذى كتب فى سنة ١٦٧٤ أن البول حلو الطعم كأنه يحوى سكرا أو عسلا ؛ وتبعه (دبسون) Dobson ، الذى قال فى سنة ١٧٦٦ إن سبب الحلاوة وجود سكر ؛ ثم (بوشاردو) Bouchardot ، الذى حدد نوع السكر وأعلن أنه جلوكوز ، وهذا فى سنة ١٨٣٥ .

(٢) Thies, H. J., 1971, Der Diabetestraktat Abd Al-Latif Al-Bagh--dadi's, Selbstverlag des Orientalischen Seminars der Universitat Bonn, Neue Serie, Band 21.

وهو الأمر الذى أدى بديتريش إلى الترجيح بأنها بخط عبداللطيف نفسه ، غير أن الأخطاء اللفظية العدة ، وإغفال نقل بعض العبارات ثم إضافتها بيد أخرى في الهوامش ، واختلاط الصفحات ، ثم ورود ملاحظات في الهوامش تصحح ترتيبها[1] ، كل هذا يشير إلى تكليف ناسخ محترف لا إلمام له بالطب باستنساخها ، ثم مراجعة المؤلف لها .

وحرصا منا على عدم الانحراف عن الطريق التى رسمناها لأنفسنا ، وعن السلوك الذى اخترناه ، وهو الرامى إلى عرض النصوص على القارئ ، ليكون فيها وفي تعليقاتنا رأياً خاصا ، عمدنا إلى طبع هذه الرسالة كاملة . كما وردت في مؤلف (ثيس) ، وقد وجدنا بعض الألفاظ صعبة القراءة ، مشكوكة المؤدى ، فأعقبناها — إذا قرأناها قراءة محتملة — بعلامة الاستفهام (؟) ، واستبدلنا بها نقطا (هكذا ...) إذا استحالت علينا قراءتها ، ثم إننا وضعنا بين قوسين ( ) ما أضيف إلى المتن في الهوامش

وقد أعدنا ترتيب الصفحات المختلطة حسب إرشادات الهوامش ، كما فعل (ثيس) ، ولكننا أشرنا إلى مواضع الخلط بخطوط عمودية وأرقام تدل على مواضعها وترتيبها في المخطوط [' ']

ثم إن الناسخ لم يقسم الرسالة إلى نبذ ، فجزأناها لتسهيل الانتقال من موضوع إلى آخر .

ولما كان القصد من نشر المقال الوقوف على آراء عبداللطيف والتعرف على تعاليمه ، وليس البحث اللغوى ، أضفنا همزة حيث أغفلت فكتبنا (ماء) بدلا عن (ما) ، و (لئلا) بدلا عن (ليلا) ، ووضعنا النقط على الحروف حيث وجب وضعها .

وإلى القارئ النص الكامل ، وسنعقبه ببعض التعليق :

---

(١) مثلا :— « هذا كتبه الناسخ من أوراق مقلبة وقد عملت على موضع التخليط هذه الصورة ٣ و . . . كلمات ما انتقل به الكلام فاطلبه تجده إن شاء الله » .

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين ، وصلَّى الله على سيد المرسلين
محمــد النبيّ الأُميّ وعلى آله الطيبين الطــــاهرين

[١ سأَلْت أَكرمك الله بتوفيقه عن المرض المسمى ديابيطا وعن أَقسامه وعلامات كل قسم منه وعن ما نوقع عليه هذا الاسم بالحقيقة وعلى الأَكثر وكيفية علاج هذا القسم خاصة إذْ كان هو الواقع بالمريض المشار إليه .

فنقول إن استرسال البول وكثرة جــــريانه قد يكون لاسترخاءِ عضلة المثانة التى ربيت على عنقها ليكون خروج البول عن إرادة فى(١) وقت مخصوص منحة من الخالق سبحانه وتعالى لئلا يؤدى إلى التقذر الدائم وشغل الوقت عن المهامّ الإنسانية ، وهذا هو فالج فى هذه العضلة خاصة ، وقد

---

(١) قال الرازى : « يحدث خروج البول بغير ارادة اذا استرخى العضل المتلقم لفم المثانة » (الحاوى : ١٠، ٢٠٨، ١٤) ، كما قال جالينوس : « وفى أسفل المثانة عضلة تمنع خروج الفضلات فى غير مواعيدها . . . وبهذه الكيفية يفرز البول من الدم بوساطة الكلا ، ومنها يصل الى المثانة من حيث يفرغ فى الوقت المناسب عنــد أمر العقــل (مرجعنا رقم ٢٥ ص ٢٥٥ — ٢٥٦)

يكون عن مشاركة ، وقد يعرض (ذلك أيضا فى العضلة التى) على مخرج العضلة اليابسة[1] وقد يكون لضعف فى هـذه العضلة كما يعرض للصبيان وهذا فيزول[2] بالسن وقد يكون عن رطوبة عارضة فيسهل زواله وقد يكون استرسال البول عن قرحة [1] [[3] فى مجارى البول فإذا لذعت أرسلت الأعضاءُ البـول ولم تمسكه لشـدة الألم فقد يكون ذلك لحدة فى البـول نفسه ويوشا (؟) ذربه بلذع الآلات فلا يقدر على إمساكه (كما يعرض إسهال) عن خلط صفراوى لذاع للامعاءِ فإن كان اللذع عند عنق المثانة كان شبيها بالزحير .

وقد يـكون استرسال البول عن ضعف القوة الماسكة التى فى الكلا لغلبة البرد وكثيرا ما يعرض هذا الصنف (للمشايخ ولا يكون مع هذا عطش) وعلاج هذا بما يسخن ويجفف وقد تكون لسعة المجارى[3] التى فى الكلا[4] فلا (يقدر على ضبط

(١) التشبيه بين الأمعاء والمثانة أو الربط بينهما يعود الى جالينوس ، وقد قال الرازى أيضا فى هذا الصدد :- « اذا استرخت العضلة المطوقة على فم المثانة والتى على المعى المستقيم عرض للبول والثفل أن يخرجا قليلا قليلا » (الحاوى : ١٠ ، ١٩٠ ، ٦) ، وهناك نبذ مماثلة فى كتابات أطباء آخرين .

(٢) يلاحظ أنه يدخل الفاء فى الكلام بعد اسم الاشارة وسيأتى مثله .

(٣) ترجع نسبة ادرار البول الى اتساع فى مجاريه الى روفس وجالينوس ، وقد وردت الفكرة ذاتها فى مؤلفات ابن سرابيون وابن سينا وغيرهم .

(٤) الكلا جمع لمن يقول كلوة أما المشهور فيها كلية فالجمع كلى .

ما فيها وما يصل إليها قدر ما يأخذ غذاءها) منه وهذا ينزح معه (أ) جسام (؟) غريبة ورطوبات بشعة وقلما يكون معه عطش وإن كان لم يكن مفرطا ويتبعه نهوك بَدَن وهذه (؟) فتشبه[1] زلق الامعاء .

وقد يكون هذا الاسترسال عن سوءِ مزاج حاد يعرض للكلا بحيث يصير مزاجها ناريًّا فيجذب الرطوبات من البدن (جذبا قويا متداركا) وأول جذبها إنما يكون من نواحى الكبد ، فإذا أعوزت الكبد رطوبتها جذبت من المعدة ثم المعدة تجذب من المرىء (والمرىء يجذب من الفم) فيعرض فيه جفاف ، وهذه الرطوبة إذا كثرت فى الكلا ثقلت عليها فدفعتها عنها بسرعة وأقبلت تجتذب شيئاً آخر من رأسٍ (؟) وتكون القوة (الماسكة فى هذه) العلة التى فى الكلا قد ضعفت أو بطلت أما القوة الجاذبة فتزيد زيادة منكرة وهذه العلة يكون معها عطش قوى شديد بإفراط (لايرويه ماءٌ لأنه) لا يلبث فى محل الحاجة ، بل يخرج وينفذ كما يرد ولذلك تسمى هذا العلة ديابيطا ومعناه عبارة الماءِ وهذه العلة فى الشراب تشبه الجوع الكلبى فى الطعام وإن كان

(١) يلاحظ أنه يدخل الفاء بعد اسم الاشارة وقد تقدم مثله سابقا .

شـــببهما (؟ ســـببهما) مختلفـــا .

ولما كانت هذه العلة تحدث عن (سوء مزاج حادّ فى) الكلا وجب أن تقاوم بما يبرد ويرطب ويغرى ويجفف فى بعض الأحيان ، فلما كان البدن يعرض له من ذلك هزال وجفوف وجب (أن يؤخـــذ فى طريق) ما يسمن ويرطب ويخصب . ولما كانت الرطوبات قد مالت نحو الكلا وجب أن تجذب إلى فوق بالقىْء ، ولما كانت الـكلا فى الأعماق وجب أن تجذب (الرطوبة عنها نحو سطح الجلد) عـــلى وجوه (؟) مختلفة ٣] [٢ بالحمام اليابس والتعريق والدلك .

ولما كانت هذه العلة تحدث عن حرارة نارية قوومت بما يبرد ويرطب ويغرى ، وبما يستعصى على القوة النـــارية أن تُحيله وتبخّره[١] بسرعة مثل (لعاب بزر قطونا وأقصى من ذلك كله لبن البقر الدوغ[٢] وهو الذى قد نزع زبده باستقصاءٍ لأنه (يبرد ويرطب ، وانخلط الدم بالجبنة فيه وبما يجب) انفعاله على الحرارة النارية ،ولذلك نزعنا زبده لأن الشىء الدسم غذاءٌ للنارية ، وهـــو مع ذلك مسخن مرخ

(١) قرأها (ثيس) : يحيلها وينخرها .
(٢) الدوغ مايتبقى من اللبن بعد انتزاع الدهن منه

سريـــع الانفعال زائدٌ فى اللهيب ، فلا نـجد لهذه العلة غذاءً هو دواءٌ أَفضل من الدوغ . ومن فضائله أنه يبرد الدم ويغلظه فيستعصى على القوة الجاذبة، ولذلك يعطى فى هذه العلة العدس والأُرز ، لما فيهما من تعليظ الدم ، وقد تعطى المخدرات لذلك أيضـــاً .

ونحن نذكر من أَقوال الأَطبـــاءِ ونصوصهم ما يجرى لقولنا مجرى الشهادة والتوثقة والتلخيص والتفصيل .

قال القهلمان [1] : العدس مما يقلل البول ويمنعه ويحبسه لأنه يغلظ الدم .

وقال تيـــاذُوق[2] إنه ينفع من كثرة البـــول مع العطش طبخ حب الآس والـكمثرى اليابس وتمر هيرون ويشرب منه كل يوم أُوقية على الريق .

وينفع منه قرصٌ أخلاطه هذه : « قاقيا مثقال ، ورديابس

(١) ورد فى الحاوى « قلهيان » ، وقد ذكر ابن أبى أصيبعة (فى البـــاب السادس) القهلـمان ضمن الأطباء الـسكندريين .

(٢) تياذوق ، توفى فى سنة ٩٠ من الهجرة ، خدم الحجاج بن يوسف وكان الحجاج يثق به ويعتمد عليه ، وروى عنه ابن أبى أصيبعة نوادر عدة ، وعشرة أقوال فى الحفاظ على الصحة ، وزعم أن الحجاج أمر كاتبه أن يسجلها بالذهب الأحمر ، وله من الكتب — تبعا لا بن أبى أصيبعة — كناش كبير وكتاب فى أسماء الأدوية وآخر فى تحضيرها .

مثقالين ، جلنار مثقال ، صمغ عربى نصف مثقال . يُقرَّص من مثقالين ، ويُسقى كل يوم قرصا بماءٍ بارد أُوقيتين على الريق فإنه عجيب لديابيطس ،وقد يزاد فيه طين مختوم نصف درهم .

ومما يعظم نفعه لهم طبخ الفواكه القابضة وماءُ التمر الهندى .

وقال الرازى : اعتمد فى علاج (ديابيطس) على ما يسكن العطش ويغلظ الدم ويبرد المزاج .

ومن تجارب الرازى قال : ممـا ينفع ديابيطس الجلوس فى ماءِ عين باردة إلى أن يخضر الجلد ويكمد لأنه يشد عضل المثانة ويبرد الكلا ويسكن العطش ، وذكر قرصاً بليغا لذلك ، وصفته :

طباشير ورب السوس وصمغ وكثيرًا ، من كل واحد نصف درهم ، نصف دانق كافور ، قيراط أفيون[١] . تقرّص بماءِ بزر قطونا ويسقى بماءِ التمر الهندى .

قال أهرن[٢] : من أطعمة صاحب ديابيطس دراح بمـاء

(١) شاع استعمال الأفيون فى علاج السكرى حتى أوائل القرن العشرين ، قبل معرفة فوائد الأنسولين .

(٢) أهرن القس ، لانعرف شيئا عن حياته ،ومن مؤلفاته (كناش) كان له نفوذ بالغ عند العرب . وزعم أن جزيوس بتيوس Gesius Petaeus ، الذى عاش فى عهد الامبراطور زينو (٤٧٤ - ٤٩١ م)، ترجم مصنفاته الى السريانية ، كما روى ابن العبرى أنه ألف ثلاثين كتابا ، ترجمها سرجيوس بالاضافة الى كتابين قيل إنهما تأليف العرب، وهو يهودى فارسى اسمه مسارجويه .

حصرم (وسمك بخل وأرز) والمصوص[1] والسفرجل ونبيذ الزبيب وينفع فيه ربّ حُمّاض الأُترج ، ويعرق فى الحمام اليابس ويضمد قطنه وبطنه بالأَضمدة الباردة القابضة ، وينفعهم الفصد ، ومما ينفعهم نفعا عظيما إدمان شرب ماءِ الفواكه القابضة كالتفاح والكمثرى والسفرجل .

قال أريباسيس [2] : أَعظم الأَشياءِ نفعاً لهؤلاءِ أن يشربوا ماءً باردا ويتقيئوا على المكان[3] ويستعملوا التدبير البارد وأَكل البقول الباردة وشرب السويق[4] ولايقرب ما يدر البول ، ويتعرق باليابس فإنه أَفضل علاجه (كما . . . الأَقراص) التى تسقى فى الحمى المحرقة ويضمد بتلك الأَضمدة بعينها ، ويجعل شرابه نقيع التمر وحب الآس والكمثرى ، وينفع فى أَوائل العلة فصد العرق من المرفق ، ويستعمل فى بعض (الأَوقات؟ الأَدوية) المخدرة شربا وحمولا .

---

(١) لحم مطهو بالخل .

(٢) أريباسس Oribase ، ولد حوالى سنة ٣٢٥م ، وكان صديقا للامبراطور جوليان وهو الذى أعلن العودة الى الوثنية ، وذكر له ابن أبى أصيبعة كتابا لابنه أسطاث ، وكتاب فرج الأحشاء ، وكتاب الأدوية المستعملة ، وكتاب السبعين مقالة ، ونقل حنين بن اسحق مؤلفاته الى العربية وذكر على بن العباس المجوسى البعض منها .

(٣) أى فورا : – on the spot

(٤) عصيدة الشعير .

قال تياذوق : إنه ينفع من ديابيطس أن يُسقى كل يوم أربع أواقٍ لبناً بنصف أُوقية سكراً إلى أن يبرأ ، وليحذر الجماع ، ويعتمد على ما يبرد من الأغذية ويغلظ كاللبن .

قال فلغريوس[1] فى ديابيطس : ليكن قصدك الأول أن تسكن (العطش أن تسقيه) ماء الورد وعصير الورد فى إبانه ،أسقه قدر قوطولين[2] ويقطن فى هواءٍ بارد جد رطب ، وتضمده بأضمدة باردة وأغذه منها - [أى مما صنعت منه الأضمدة] - حتى يسكن عطشه فإذا سكن فعليك (بالحقن المسهلة التى تلين البطن ووا [ل] [3] له النوم بكل حيلة .

قال : ومن أقوى أدويته القىء عقيب شرب الماءِ البارد . وقال غيره : عليك فى ديابيطس بترطيب البدن جهدك ،وأعطه الأغذية العسرة التغير الباردة ، لئلا تلطف ويحدث عنها بخارات بسرعة ، لأن الكبد من هؤلاءِ قوية ، فهى تجذبه ما فى المعدة من الرطوبة ، وأعظمهم ماءُ الشعير وماءُ الخيار

---

(1) فلغريوس . لايعرف تاريخ حياته على وجه التحقيق ، وذكره ابن أبى أصيبعة من بين الأطباء المشهورين بعد وفاة جالينوس ، ونسب له عددا من المؤلفات .

(2) تعريب لفظ يونانى مؤداه مقياس سائل ، قال ابن سينا فى القانون (الكتاب الثالث ، الفن ١٩ ، المقالة الثانية ، فصل فى علاجات ديابيطس) : عصير الورد فى وقته نافع لهم ومسكن لعطشهم والشربة قدرقوطولين » .

(3) جاءت فى الحاوى : « وأجلب له (١٠، ١٩٥، ٥) .

ويكون شرابهم ماءَ القرع وماءَ الرمان الحامض والريباس والإجاص ورُبّ الحصرم ويسقون (بزر قطونا بالخيار ودوغ البقر) وأقراص الطباشير ، واجتلب العرق جهدك واطل الكلا بصندل وأقاقيا وكافور وبنج بماءِ ورد فإنه عجيب وماءُ الثلج لهم عجيب النفع .

علاج تامّ لديابيطس .

يسقى الدوغ الحامض مستقصى إخراج (الزبد منه ويأكل خبزه به) ويضمد كلاه بما يبرد ، ويبرد كل ساعة ويُجعل أبداً فى فيه مصل ليسكن العطش ، ويسقى ماءَ الشعير ، ويحقن بماءِ الورد ولعاب بزر قطونا كل يوم ، ويسقى أَقراص الكافور ، ويطعم الفواكه والبقول الباردة .

قال الرازى : ومن علاجه يجعل مسكنه سردابا (ندياً ويستلقى على أَرض باردة) وعلى ورق الخلاف مرشوشا عليه ماءُ الثلج ، ويتعمد أَن يضع أَسفل ظهره عليه ، ويمسك فى فيه مصلاً ولا يتحرك البتة لئلا يعود ويتحلل منه شئ فحينئذ تَبرد كلاه إذا دام استلقاؤه على الأَشياءِ الباردة ويسكن أَكثر مابه .

قالت الحكماءُ : القيء ينفع من سلس البول نفعا بليغا لأَنه

يجذب (المادة ويعكسها عن طريقها فترجع القهقرى) .

قال تياذوق : اعتمد فى ديابيطس على الأغذية والأشربة القابضة (والحامضة معا) كماءِ الحصرم ونحوه ،وعلى الباردة الرطبة كماءِ الشعير والبقول ،وعلى المغرية (كالصمغ والطين) وليدخل فى الماءِ البارد فى اليوم مرات ، ويضمد أسفل البطن كما (يدور[1] بالأشياء الباردة) القابضة .

قال آخر : ،لديابيطس مجرب : ينقع ثلاث بيضات فى خل يوما (وليلة ثم يكسر ويتحسى) .

قال آخر : وللحرارة[2] الكلا والمثانة بزر خيار ، (لبن ، دهن ، ورد ، آجزاءً) متساوية .

قال جبريل بن بختيشوع[3] : أجود علاج ديابيطس (لبن البقر ولبن النعاج) ويحقن بدوغ البقر أسبوعا كل يوم بثلثى رطل .

وقال : شرب الماءِ فى هذه العلة (أحمدُ من شُرب الشراب)[4] .

---

(١) أى يلف

(٢) لنقلها « ولحرارة » أو سقطت « فى » بين « الحرارة » و « الكلا » .

(٣) جبريل بن بختيشوع من أوائل الأطباء العرب الذين عربوا النصوص القديمة ، استدعى من جند شابور الى بغداد حيث توفى فى سنة ٨٢٨ – ٨٢٩م

(٤) أى النبيذ .

وقال روفس[١] : السماق إن شرب بشراب قابض قطع درور البول .

قال (فيلغريوس فى) ديابيطس : عليك بتسكين العطش أولا ، فإذا سكن فاحقنه بالحقن المسهلة الملينة مرات ، ثــم أسهله بحب الصبر ، ثم أرحه ثلاثا[٢] وعاود إسهاله بها ، ثم استعمل القىء بعد الطعام بالفجل .

ومن أدويته أن توضع المحاجم الحارة على جميع البدن والكماد والدخن[٣] ولسيما [٤] أطراف البدن واستعمل الأدوية المحمرة ، ثم أرحه أياما ، واستعمل الركوب باعتدال ، والدلك وخاصة فى أطراف البدن ، والحمام ويشرب الشراب اليسير فانه يبرأ برءًا تاما .

---

(١) روفس الأفسى (القرن الاول – الثانى م) وضعه ابن أبى أصيبعة ضمن « الأطباء المذكورين فى الفتــرة بين أبقراط وجالينــوس » ، وقال عنه إنه كان من مدينة أفسس ولم يكن فى زمانه أحد مثله فى صناعة الطب ، وذكرت له مؤلفات كثيرة ، وملاحظات مبتكرة فى التشريح ، ونشر دارمبرج Ch. Daremberg ما وصل الينا منها فى سنة ١٨٧٩ .

(٢) أى ثلاثة أيام .

(٣) يقصد « الدخان » . قارن هذه النبذة بأكلها بما ورد فى القانون :– وأما الكائن من البرودة ، وهو مع ذلك لايخلو عن العطش ، ولم يتفق لنا مشاهدته ، فقد دبر له بعض العلماء المتقدمين فقال : يجب أن يتلطف لتسكين عطشه ثم يسهله بحقن ملينة مرات ثم يسهله بحب الصبر . . . ثم ترفهه ثلاثة أيام ثم يعاود التدبير ثم يقيئه على الطعام بالفجل ومايشبهه ثم يسخن بدنه بالمحاجم وتوضع عليه الكمادات والبخورات وخصوصا أطرافه وربمـــا احتجت الى أن تستعمل عليها الأدوية المحمرة ثم يراح أياما ثم يراض بالركوب المعتدل والدلك المعتدل . . . » (الكتاب الثالث ، فن ١٩ ، فى تغذية ديابيطس) .

(٤) لعلها « ولاسيما »

قال جالينوس فى كتاب الأعضاء الآلة : ذرب البول يكون من نارية (فى الكلا بقوى قوتها) . . ؟طبعها كذلك وقوتها الماسكة ضعيفة والعطش (يتبعه لاستفراغ) رطوبات البدن .

وقال غيره : احقن صاحب هذا المرض باللبن الحليب ودهن (اللوز ودهن النخل ودهن القرع واسقه) بزر قطونا وأطعمه الاسفيذباجات[1] الدسمة باللحوم الفتية والأشربة الرقيقة البيض[2] واسقه لبن المعز المطبوخ بالماء .

وقال الرازى : يصلح لهم الفصد إذا كان اللهيب قويا شديدا ويسقون ماء الشعير (ويدخلون الحمام) اليابس ويجعل الرأس من خارج .

وقال جورجس[3] : ينفع من هذه العلة الأمخاخ والأدمغة إذا أكلت ولحوم الجداء والكوارع والقثاء والخيار والملوخيا والخس. وأخص الأدوية فى نفعه دهن الورد (وبزر قطونا والأبزنات) [4] والتمريخ بالسمن وشرب ماء الشعير والحقن الدسمة المبردة .

---

(١) بالفارسية ، لحم مطهو بالبصل والزيت وخثارة اللبن .

(٢) البيض النئ السائل الزلال .

(٣) هو جرجس بن جبريل بن بختيشوع ، مؤسس سلالة بختيشوع الطبية ، استدعى من جند شابور الى بغداد فى عهد المنصور ، ونال شهرة عظيمة ، ثم عاد محاطا بالاجلال والتكريم الى جند شابور حيث توفى فى سنة ٧٦٩م .

(٤) حمام مغطاس فى حوض من النحاس (فارسية) .

قال ابن سربيون[1] : أشرف علاج هؤلاءِ السكون وترك (جميع الحركات البدنية) والنفسانية لأنها توسع المجارى وهم يحتاجون إلى ضد ذلك ويستعملون الأدوية الباردة القابضة من الأضمدة والأشربة ،ويحذرون جميع ما يدر البول ويحذرون الجماع جدا ويبرد ٢] [° القطن والبطن بالأضمدة ويشربون (الأدويَة الدَافعة) لنزف الدم ويشربون لبن النعاج المطبوخ قليلا أو غير مطبوخ فإنه ينفعهم وينفع من هزالهم وهو عظيم النفع جدا لهؤلاءِ ، ثم قال : وهذه العلة قد تحدث بأدوار ، فافصد قبل الدور ثم استعمل ما ذكرنا وإن كان يحدث (بلا أدوار فقاومه) بهذه الأدوية وأجلسهم فى الماءِ البارد ولا تتوان فى علاجهم ولا تفتر عنه لئلا يؤدى بهم إلى الذبول .

وقال أيضا : إن هذا المرض يحدث معه عطش (ويبول ما يشرب على المكان)[2] ويحدث عن شدة حرّ الكلا والتهابها فيجب أن تضمد الكلا بالمبردات ويسقى منها ، ولأن البدن فى هذه العلة قد يبس بكثرة الاختلاف ، فاسقه

---

(١) ابن سرافيون ، ألف باللغة السريانية ، فى القرن التاسع الميلادى .

(٢) انظر هامش رقم ٣ ، ص ١٣١ .

الشـــراب أكثر من العادة لئلا يبقى للعطش موضع حدوث ، وأغذهم بأحساءٍ متخذة من الشعير وماءِ القرع وماءِ الشعير والخيار وضمد أكبادهم بما يبرد ليسكن العطش ، وبزر قطونا عظيم النفع لهم ، وكذلك دوغ البقر (والأدوية القابضة أيضا) .

قال أحمد الفارسى : صنعة أقراص الطباشير لهذا المرض : ورد أحمر (٣ دراهم ؟) صمغ عربى بزر حماض ونشا ، من كل واحد (٤ دراهم ؟) طباشير (٣ دراهم ؟) وزعفـــران درهمين يدق وينخل ويعجن بماءٍ ويقرص . الشربة كل يوم درهم ، بماءٍ وسويق الشعير المنقع .

اقراص اخرى :

طباشير ، وبرباريس ، وورد ، وبزر قطـونا ، أجــزاء متساوية ، يدق وينخل ، ويعجن بماء الخيار أو بماء سويق الشعير المنقع .

وقال ثابت بن قرة فى كتاب الذخيرة : درور البول أنواع ، فمنها الذى يسمى ديابيطس أى العبارة ويحدث عن سخونة شديدة فى الـكلى[1] وكل ما يشربه يبوله مـكانه من غير تعسر فيه ، ويكون لون البول أبيض مثل الماءِ ويحدث ذلك

---

(١) من هنا يكتبها « الكل » أو يكتبها « الكلا » .

عن فساد مزاج حارّ يابس يعرض للكلى فتقوى (بذلك القوة الجاذبة) وتضعف القوة الماسكة لأن الانصباب إذا كثر وثقل على الكلا ضعفت عن حبسه فترسله ، والعلاج منه أن نبدأ فنسقى الاسفيوس المحمص وربوب الفواكه وأقراص الحماض بماءِ الرمان الحامض فان لم يغن سقوا أقراص (القاقيا ويبرد المتن)[1] والقطن بخرق مبلولة بخل وماءِ ورد مبردة على الثلج ، أويصب عليه ما قد دِيف فيه قاقيا وبُرد بالثلج وتكون مساكنهم ندية ، فإن لم يغن ضمد (بدقيق الشعير) ودهن ورد ، ويغذون بما يكون له غلظ ونفح (نفخ ؟) وعسر تحلّل حتى لا تحدث عنه بخارات ، وذلك مثل الحساءِ المتخذ من الحنطة والشعير واللون الذى (يتخذ من زبيب وحب رمان) وحصرم ومصل ورائب البقر ، ويمزج ماؤهم برب الرمان والحصرم أو نحو ذلك ، ويكون فى فيه دائما حب رمان أو إجاص يابس أو سماق .

(وقال صاحب كامل الصناعة : إن العلة المعروفة بديابيطس) لما كان حدوثها عن حرارة مفرطة تغلب على الكلا وجب أن يعالج صاحبها بالأشياءِ المبردة المطفئة والأغذية

---

(١) المتن هو الظهر .

الكثيرة الدسم فيعطى ماء الشعير بشراب الخشخاش ، وماء الرمان المز وقرص الطباشير الحابس بماء التفـــاح وشراب السفرجل ولعاب بزر قطونا ودهن ورد ، وشيء من طين أرمني وطين قبرسي ، فإن بلغ وإلا فيعطى قرص الكافور مع الرمان . ووصـــف ضـــمادا من صندلين[1] وورد من كل واحـــد أربعة دراهم ، بزر قطونا ٣ دراهم، طين أرمني وجلّنار من كل واحد درهمان يدق الجميع ويبل بماءِ البقلة الحمقاءِ وماء ورد وماءِ الخس ويضمد به الكلا .

ووصف حقنـــة من البقلة الحمقاء وماءِ حي العالم ومـــاءِ الخس وماءِ ورق الخشخاش الطـــرى وماءِ أغصـــان الورد والشعير ، ودهن ورد ودهن نيلوفر ويحتقن به ، فإنه نافع ويكون الغـــذاءُ حصرميـــة وريباســـية وسماقيـــة ويعطى أَدمغة الحملان ومقـــادمها وأَمخاخها والبيض النمبرشت والجبن الرطب والسمك الطرى ما كبر منـــه وسمن . ومن البقول الخس والبقلة الحمقاءُ والطرخشقوق ، ومن الفاكهة التفاح والخـــوخ والـــكمثرى والسفرجل والرمان والعناب الطرى واللوز الرطب والخلال والبسر الجيســـوان[2] وقد

(١) هما الصندل الأبيض والصندل الأحمر .

(٢) تمر عراق ناضج .

ينتفعون أيضا بتناول الجمار والطلع، فإن كان الزمان صيفا أو ربيعاً فإن الانغماس فى الماءِ البارد نافع والراحة والدعة وتجنب الأشياءِ المدرّة للبول كالقثاءِوالخيار والبطيخوبزورها.

قال الرازى فى الطب الملوكى وغيره من كتبه: إن ديابيطس معناه سرعة عبور البول مع عطش وحرارة، وينفع منه ماءُ الشعير ولعاب بزر قطونا وأقراص الطباشير وربوب الفواكه الحامضة القابضة والطين المختوم والصمغ العربى والجلنار والسماق والنشا والكتيرا وجميع ما يقبض ويسدد ويغرى وتبريد الظهر بالأضمدة والأطلية وأكل الرائب والماست والحامض والمصل وقديد المشمش والإجاص والتمر الهندى إذا أمسكت فى الفم أو تؤدّم بها.

فهذا القدر كاف فى شهادات العلماءِ ومعاضدة بعضهم بعضا، والزيادة على ذلك تكرار، ومن لم يقنعه هذا المقدار من الشهادات فلا يقنعه ما زاد عليها مما رفضنا إثباته خوف التطويل.

وكان شيخ من أهل صناعة الطب ذو حنكة وممارسة قد وصف لهذا المريض دوغ البقر، فبادر رجل مغربى، شيخ السن صبى العلم والحلم، فأنكر عليه، ثم وصف السفرجل، فاشتد الإنكار، وزعم المنكر أن السفرجل يدر البول فلا يصلح

لهذه العلة ، وأنه يضر غاية الضرر . وكان ذلك فى مجلس السلطنة ، وارتفعت أصواتهم وصوته بالقذع والفحش ، والمغربى لايرعوى، ثم جاءُوا إلىّ فسألونى الفتيا فى ذلك ، فأبيت ، لكن عملت هذه المقالة لأَصحابى حباً لهم وخاصّا بهم

فأما (؟) دوغ البقر فقد ذكرنا صلاحيته ونفعه وعلة ذلك وأتينا من شهادات العلماءِ بما فيه بلاغ ومقنع وأما السفرجل . . . فذكرنا . . منافع ، ومنهم من وصف ربه وشرابه ، ومنهم من وصفه نيا ، ومنهم من سكت عنه ولكن ذكر أَمثاله ، مثل التفاح والكمثرى والزعرور وحب الآس ، وليس فيهم من نهى عنه ولا عن أَمثاله ، لاصريحا ولا . . . جوهر العلة يقتضيه ويوجبه من جهة برده ويبسه وقبضه وحبسه جميع السيلانات (من جميع جهات) البدن .

ثم إنكم قلتم إن ابن سينا ذكر فى كتاب القانون النهى عنه فى هذه العلة فقال : (ولا تستعمل فى هذه العلة ماكان) مدرا وإن كان قابضا مثل السفرجل [1] .

فأقول إنى أذكر أولا أقوال العلماءِ فى السفرجل على جهة الاختصار ، ثم بعد ذلك قول ابن سينا وأحل هذا الشك .

---

(١) قال ابن سينا :— « ويجب أن يحذر من الفواكه التى فيها تبريد وقبض مافيه إدرار كالسفرجل » (الكتاب الثالث ، الفن ١٩ ، المقالة الثانية ، فى تغذية ديابيطس) .

قال الرازى فى كتاب الأغذية : السفرجل يقوى المعدة جدا والكبد ، وينفع المحرورين ومن فى شهوته للطعام نقصان ومن تعتريه الخلفة الصفراوية ولا يعدم نفخة وطول وقوف فى المعدة ، فلذلك ينبغى أن يحذره المبرودون ومن تعتريه رياح غليظة ولا يشربوا عليه ماء باردا ، ولا يأكلوا عليه طعاما ويدفع ضرره لعقات عسل ، ويشرب عليه شراب قوى ، ومن وجد منه بردا فى عصبه فليتمرخ بالأدهان التى وصفنا لذلك .

وقال الرازى فى موضع آخر : السفرجل حلوه وحامضه يشد المعدة ، إلا أن الحامض أبلغ فى ذلك ويثير شهوة الطعام وخاصة عقل البطن إلا أنه إذا أكل بعد الطعام يذر الثفل وإن أكل قبل الطعام صير الطعام حامضا .

أقول : إنما يحمض الطعام لأنه يقف فضل مدة (عما يستحق لانسداد مسلكه بالسفرجل) الذى يقدمه ، ثم إن السفرجل يكون قدسبق فبرد المعدة .

وقال يوحنا[1] : إن السفرجل بارد فى الدرجة الأولى

(١) هو يوحنا بن ماسويه السريانى ، وعرف أيضا بأبى زكريا يحى بن ماسويه ، توفى سنة ٨٥٧م . وقيل إنه اكتسب من صناعة الطب ألف ألف درهم ، خدم هرون والأمين والمأمون ، كلفه الرشيد بترجمة الكتب القديمة ، ووضعه أمينا على الترجمة ، وكان حظيا عند الخلفاء ، واشتهر بحدة لسانه وبنوادره .

يابس فى الدرجة الثانية ، وهو دابغ للمعدة مدر للبول عاقل للبطن يقطع المرة الصفراء وغذاؤه يسير والإكثار منه متخم محدث للقولنــج .

وقال ابن سمجون فى كتابه الجامع : السفرجل يقوى المعدة ويدر البول ومشويه جيد للاســهال وقرحة المعا ونفث الدم والهيضة، وهو بارد فى الأُولى ويابس فى الثانية، والحامض منه يدرّ ويعقل وينفع من قذف الدم .

وقال ابن إدريس (الصقلى المازرى [1] فى كتابه وهو كتاب) شريف : السفرجل ذكره ديسقوريدس فى المقالة الأُولى من كتابه، وأكله يطيب النكهة ويعقل البطن، ولم يذكر أنه يدر البول بل قال أقوالا شبيهة بما تقدم .

وقال صاحب كتاب البستان [2] : إنى (وجدت السفرجل مع قلة) غذائه من أفاضل الفواكه وجيدها جوهرا وعنصرا

(١) قد يكون أبو عبدالله محمد بن محمد الحسينى العلى بالله ، الملقب بالشريف الإدريسى الصقلى ، والأغلب أنه ولد حوالى عام ١١٠٠م ولقب بالصقلى لطول إقامته فى بلاط ملك صقلية روجر ، وهو الجغرافى الشهير صاحب « نزهة المشتاق ». والمعروف عنه أنه صنف كتابا فى المفردات ، أدرج فيه المفردات حسب ترتيبها الأبجدى ، ولم يصلنا من الكتاب الا النصف الأول دون حرف السين . أما الشك فى شخصية الإدريسى المذكور فى الرسالة فانه يرجع الى أن تسميته بالمازرى لم ترد فى أى مرجع .

(٢) هناك مؤلفات عدة عنوانها « البستان » ، ولانستطيع تحديد ماقصده البغدادى منها .

وذلك أنه قد جمع إلى نفعه وموافقته وتقويته القلب والمعدة لذاذة طعم وطيب رائحة وحسن منظر ، وهو مع ذلك غير مائل مع خلط ولا مؤذ لعضو . ومن فضيلته أنه لايعفن الطعام فى المعدة إذا أكل بعد الطعام كما يفعله سائر (الفواكه وذلك) أنه إذا أكل قبل الطعام عمل فى دباغة المعدة وتطبيبها ، وأعان على الحبس ، وإذا أكل بعد الطعام عصر فى المعدة ، وأحدر ما فيها بسهولة من غير نكاية ولا أذى .
والسفرجل مطيّب للنكهة ، منبّه للشهوة ، دباغ للمعدة ، قماع (للمرّة ، حافظ للأجنّة فى بطون أمهاتها) وقد تختلف قوة السفرجل بحسب اختلاف أنواعه وطعومه (ومعادنه) وقد تختلف من قبل الفجّ منه والمدرك ، وبحسب ما أتى عليه من الزمان إلا أن جوهره بالجملة منسوب إلى البرد والقبض ، وأقربه إلى الاعتدال الحلو منه ، وغذاؤه أكثر من غذاء جميع أنواعه ، وهذا الحلو ضعيف فى حبس البطن (والحامض منه أرجح) برداً وأقرب إلى التطفية ، والقابض والعفص أقوى دباغا وحبسا للبطن ، والمائى ضعيف فى هذه الوجوه كلها ، والفج لاخير فيه . والسفرجل المطبوخ والمشوى قبضه أقل ، وغذاؤه أكثر ، ولعلم الحكماء بفضائل السفرجل اتخذوا منه أدوية كثيرة °] .

وقال جالينوس : السفرجل مخصوص بشيء ليس للتفاح وهو أن فيــه فضل قبض وربّه يبقى إذا طبــخ مع العسل ، وأما رب التفاح فإنه حمض .

وقال بقراط فى السفرجل : ما كان منه حامضاً فجًّا فهو عسر الانهضام ، وما كان نضيجا فذلك فيه أقل . وفى جميع أنواع السفرجــل قبض ، وماؤه يقطع القىء ويعقــل البَطْن ويكثر البول ورائحتــه أيضاً تقطع القىء .

وقال ديسقوريدس : السفرجل يسد المعدة ويغزر البول وإذا شوى كانت قوته ألين ، ويصلح لأصحاب الذرب والعقر فى الأمعاء ولمن ينفث الدم ولمن يتقيأ المرارَ ولسيما[1] غير المشوى.

وقال روفس : السفرجل من أنفع (الأشياء لحبس البطن وإنهاض) الشهوة ، وليس هو بردىء لدرور البول ، والسفرجل لايكاد يفسد فى المعدة فى المريض فضلا عن الصحيــح فإذا طبــخ كان أسرع انهضاما وقد يقىء .

من أقوال (العلماء أشياءُ شبيهة) بما ذكرنا ليس فيهــا سوى التكرير واختلاف العبارة .

---

(١) لعلها « ولا سيما » .

وقــد حان ذكر (الحكومة فيما شــجر بينهم) فى أمر السفرجل وإسهاله وإدراره وصلاحيته فى هذه العلة وضرره لها فنقول : إن السفرجل أجمعوا على أنه يقوى الأعضــاء ويبرد ويقبض ويحبس (السـيلانات) لـكنه قد يسهل بالعرض وهذا على وجهين : أحدهما أن يؤخذ بعد الطعــام فيقوى فم المعدة ويعصر الطعام فيقوى القـــوة الدافعــة فيحصل خروج الثفل بسرعة أو بكره ، وليس هذا فى الحقيقة إسهالاً ، والوجه الآخر أن يؤخذ قبل الطعام أو بعده ولــكن يصادف فى المعدة رطوبة لزجة أو لذاعة حريفة فإذا اختلط (اليابس اللزج كان عنه إسهال ، لأن القابض يعصر ويقوى القوة الدافعة واللزج يزلق) وينفعل للخروج بسرعة وأما اللذاع الحريف فإذا امتزج به القابض صار مسهلا كمــا يعرض فى الأهليلجات وفى عصارة القرظ وعصارة قشــور الرمان ، وهذه إذا جفت لم تسهل ، لأنه يبقى القابض وحده وتذهب (المائية اللذاعة فليس من شأن) القابض بما هــو قابض أن يسهل ، وإنما شأنه أن يمسك فإذا اختلط بالمسهــل قوى إسهاله فنسب إليه الإسهال بالعرض حيث كان خادما للمسهل بالوجه الذى ذكرنا فإذا أخذ السفرجل قبــل[٤]] .

[٦ الطعام والمعدة نقيـــة صحيحة فإنه يحبس البطـــن ويبطئُ خروج الثفل قولا واحدا ،لأنه يزيد فى القوة الماسكة وحينئذ يصح أن يقال إنه يدرّ البول بطريق العرض لأن الثفل إذا لبث (فى الامعاءِ تمكنت الماساريقا) من جذبهـا واستقصائها ، فتوفرت الرطوبة المائية فى الكبد فدفعتها إلى الكلا فإذا كثر الفضل المائى فى الكلا دفعته إلى المثانة فكان إدرارٌ .

وللسفرجل وجه آخـــر من الإدرار وهو أنه بما فيـــه من العطرية واللطافة التى يحملها الجـوهــر الحامض ينفذ إلى الكبد (وآلات البول ويقويها) ، وإذا قويت هذه الآلات جاد فعلها فصارت سقيتها للدم وتصفيتها له فى المائية أجود وأفضل ، فكان إدرارٌ على جهة الاستقراع والتنقية الصحية .

ومن شأن الســــــفرجل أن يبرد ويغلظ الدم ويضيـــق المجـارى فإن (كانت العلة فرط حرارة نارية فالسفرجـــل يوافق) فيهـا لأنه يبـــرد ويطفئُ ويقوى القوة الماســكة ويضعف القوة الجـاذبة ببرده ،ونحن كنـا قد قلنـا إن القوة الجاذبة فى هذه العلة تقوى حرارتها وتزيد زيادة منكرة ، والماسكة تضعف ، فإذا كان السفرجل يقوى الماسكة ويزيل إفراط الجاذبة فهو من أدوية هذه العلة .

وإن كان الإدرار عن سعة المجارى و كثرة رطوبة فالسفرجل نافع جدا ، لأنه يضيق المجارى بقبضـــه ويخشنها ويجفف رطوبتهـــا بيبسه .

وإن كانت العلة عن برد لم يظهر للسفرجل فيه كبيـــر مضرة ، لأن برده فى الدرجة الأولى ، وما فى الدرجـــــة الأولى لايظهر أثره إلا فى زمان طويل وأما يبسه فيسبق ويظهر أثره لأن ما فى الدرجة الثـانية يظهر أثر ه فى زمان قصير و أيام قليلة .

وإن كان الإدرار عن خلط صفراوى حاد لذاع أو رطوبة بورقية [1] حريفة أو قرحة فى مجـــارى البول ، فالسفرجل ينفع فى ذلك كله لأنه يقاوم هذه الكيفيات المنكرة ويدمّل الخراجات والقروح بما فيـــه من التخفيف والتبريدوالتقوية والتعطيـــر .

فيتبين من جميـــع ما ذكرنا بالبرهــــان الواضح أن السفرجل ينفع العضو نفسه (ويقاوم العلة مقاومة) بالذات وأن إدراره ليس إدرارا مرضياً بل إدرار صحىّ على جهـــة التنقية لتقـــويته الآلات فهو يردّ العضو الذى خرج عن

(١) نسبة الى البورق .

اعتداله فى الحرارة والسعة إلى اعتداله ، فهو دواءٌ له لاشك فيه .

وهم قد وصفوا لهذه العلة الخيار و (القثاءَ ، لما فيهما من التبريد وتغليظ الدم وإن كان فيهما رطوبة) وإدرار باتفاق منهم ، وقد أجمعوا على أن إدرارهما أقوى من إدرار السفرجل وليس فيهما يبسه ، وكذلك الرجلة والملوخيا ؛ والسبب فى نفع هذه الأشياءِ فى هذه العلة مع ما فيها من الإدرار أن الكيفية المقصودة منها وهى التبريد والترطيب هى أقوى فيها من الإدرار ، فيسبق الأقوى ويفعل قبل الأضعف .

وأما من نهى عن الخيار والقثاءِ فعلى جهة الاحتياط (والاستقصاءِ لا أن ذلك) ظاهر الضرر كما فى البطيخ ، فإن البطيخ فيه قوة غسالة جلاءَة كثيرة . ولذا يجلو سطح البطن ويغسل اليد من الوضر ، وليس ذلك فى القثاءِ والخيار ، وأنت تجد فى الخيار قبضا ظاهرا ولسيما[1] فى عصارة قشر الأخضر منه الطرى ، وإذا كان الإدرار فى الخيار والقثا ضعيفا فهو فى السفرجل أضعف ، وإذا جاز استعمالهما فى هذه العلة فاستعمال السفرجل فيها أجوز ، وإذا وُصفا فى هذه العلة لبردهما فقط فالسفرجل أولى أن يوصف لبرده وقوة يبسه . وهؤلاءِ العلماءُ

(١) صحتها « لاسيما » وقد سبقت مكتوبة بدون ألف مرتين .

الذين وصفوا السفرجل فى هذه العلة قوم (أولو تجربة وقياس[1] مصحح معضود بالتجربة .

وأما ابن سينا فليس من أرباب التجارب ولا يوثق به فى ذلك . وأما قياسه فساذج ، والقياس الساذج فى صناعة (الطب مطرح أو موقوف) على التجربة ، فإن صححته وصدقته قُبِل وإلا ردّ واطّرح[2] .

ونحن فقد[3] أتينا بقياس صحيح مأخوذ من مقدمات ذاتية فى صناعة الطب استنتجنا (عنه أنه لا مانع من) استعمال السفرجل فى هذه العلة وأنه نافع فيها ومن أدويتها ثم أتينا بشهادات (المجربين المقبول قولهم وتجربتهم بما فيه) مقنع .

انتهى القول فيما قصدنا له . وكان ابن سينا قرأ لبعضهم

---

(١) أولو القياس هم المنتمون الى مدرسة سميت أيضا مدرسة الدجماتيكينا Dogmatists وهى التى تميزت بالتمسك بالنصوص وبصورة خاصة بكتابات هيروفيلس وايرازستراتس ، الطبيين السكندريين ، وبالاكتفاء بالجدل العقيم حولها . أما أولو التجربة فهم الـ empiricists أى التجريبيون ، الذين ثاروا على النظريات ، وتجردوا من كل تعليم فلسفى ومن كل التأملات التعقلية ، وأعلنوا سيادة التجربة على أنها المصدر الوحيد للمعرفة ، وقسموها الى ثلاثة أركان هى :- الملاحظة الشخصية ، وملاحظة الغير ، والقياس ، وقد امتازوا بتفوقهم فى معرفة العقاقير والسموم .

(٢) يلاحظ القارئ أن فرصة الهجوم على ابن سينا لم تفت البغدادى .

(٣) يلاحظ إدخاله الفاء على الخبر .

أنه نهى عن الخيار والقثاء فى هذه العلة لإدرارهما فقاس عليهما السفرجل وذكره يغرب به ، وهذا الأسلوب كثيرا ما يسلكه ويرتكبه ، فقد أتينا بقياس صحيح مأخوذ من مقدمات ذاتية فى الصناعة الطبية (أنه لا مانع من استعمال) السفرجل فى هذه العلة ، وأنه نافع فيها ومن أدويتها ثم إن شهادات العلماء والمجربين تعضده وتصححه ، فلم يبق مخالف إلا ما شذّ من ابن سينا وقد فسخنا قياسه . وأما التجربة فليس له فيها قدم راسخ ، وإنما هو عن العلماء بها ناسخ .

وقد رأيت هذا المقدار كافيا ولحق سؤالكم قاضيا .

تمت بمنّه وجوده ، والحمد لله رب العالمين ، وصلى الله على سيدنا نبيه محمد وآله الطيبين الطاهرين .

وكان الفراغ من نسخ هذا الكتاب .

يوم الاثنين خامس وعشرين من شهر جمادى الآخر [ة] سنة اثنى ؟ وعشرين وستمائة .

دراسة

يمكن تجزئة هذه الرسالة الطويلة إلى ثلاثة أجزاء : أولها يشمل أقوال عبداللطيف في المرض المسمى ديابيطس ، ثانيها يسرد آراء من سبقه من الأطباء ، وثالثها مناقشة لأقوال العلماء في فائدة السفرجل ورفض رأى ابن سينا فيه .

والجزء الأول مقتضب ، لا يتجاوز أربعة وثلاثين سطراً ، وخلط البغدادى فيه بين ثلاث ظواهر تختلف كل الاختلاف ، مع أن اختلافاتها لا تفوت أى طبيب ناشئ ، بل إنها في تناول أى ملاحظ مدقق وإن كان لا يلم بأى قسط من الطب، وهذه الظواهر هى :

١) فرط إدرار البول ، أى زيادة مجموع ما يفرز منه زيادة مطلقة .

٢) السلس غير الإرادى الذى يحدث للصبيان والشيوخ والمفلوجين لعجزهم عن التحكم في عضلات حبس البول في المثانة ، وفي الأعصاب المسيطرة عليها .

٣) تواتر تبول أقدار صغيرة من البول ، نتيجة لهياج المثانة لالتهاب المجارى البولية او تقرحها .

والظاهرة الأولى هى الوحيدة التى ينطبق عليها تعريف الديابيطس .

ويبدو هذا الجهل أفضح وأخزى إذا قارنا هذا الجزء من الرسالة بما أورده البغدادى في الجزء الثانى من الرسالة وهو الخاص بآراء المتقدمين ، وبخاصة إذا قارناه بتعالم ابن سينا ، الذى رماه البغدادى بقلة الخبرة وضعف المنطق، ذلك أن

هذا العالم الأصيل أحسن الفصل بين عجز الكلية عن احتجاز الماء (وهذا ما يسببه إما الديابيطس المليخ diabetes insipidus المسمّى أيضا بالديابيطس البرىء diabetes innocens أو أمراض الكلى ، أو البرد ، أو كثرة شرب الماء والسوائل ، أو وجوب إفراز مواد واردة من الكبد بأقدار لا تحتملها الكلية ، وهذا التفسير الأخير أقرب المستطاع إلى تفسير مرض البول السكرى في هذا الوقت .

وقد أضاف ابن سينا أنه يؤدى إلى الذواب والدق ، والى القارئ - بالإضافة إلى صفحات أخرى فسّر فيها ابن سينا بتطويل السلس غير الإرادى ، وتقطير البول الناتج عن أسباب في البول أو في آلاته أو في جرم المثانة ، إلى القارئ نص ابن سينا .

« ديابيطس هو أن يخرج الماء كما يشرب في زمان قصير ونسبة هذا المرض إلى المشروب وإلى أعضائه ، نسبة زلق المعدة والأمعاء إلى المطعومات ، ... وصاحبه يعطش فيشرب ولا يروى بل يبول كما يشرب غير قادر على الحبس البتّة ، وقال بعضهم إن هذا يعرض بغتة لأنه طبيعى غير كائن بالإرادة ، وزلق الأمعاء قليلا قليلا لأن هناك حسا وإرادة ، وهذا كلام غير محصل ويسبب ديابيطس حال الكلية إما لضعف يعرض لها واتساع وانفتاح في فوهات المجرى فلا ينضم ريث ما تلبث المائية في الكلية ، وقد يكون ذلك من البرد المستولى على البدن أو على الكبد ، وربما فعله شرب ماء بارد أو حصر شديد من برد قارس وإما لشدة الجاذبية لقوة حارة غير طبيعية مع مادة أو بغير مادة ، وهو الأكثر ؛ فتجذب الكلية من الكبد فوق ما تحتمله فتدفعه ثم تجذب من الكبد والكبد مما قبلها فلا يزال هناك انجذاب متصل المائية واندفاع . وهو مرض ردىء ربما أدى إلى الذواب وإلى الدق ، بسبب كثرة جذبه الرطوبات من البدن ومنعه إياه ما يجب أن يناله من فضل الرطوبة بشرب الماء » (المقالة الثانية من الفن ١٩ من الكتاب الثالث من القانون) .

وفي هذا الصدد يجدر بنا أن نشير إلى معنى « الرطوبة » عند القدامى [1] ، فقد ظهرت منذ عهد فلاسفة الإغريق الأيونيين الأوائل مجموعة نظريات فحواها أن الحياة مرتبطة بتوافر ثلاثة عناصر هي : الماء ، والنار ، وعنصر ثالث مركب من الماء والنار ، وأن الماء هو الجوهر الأول لكل الأحياء (وجعلنا من الماء كل شيْ حيّ) . وكان هراكليتس الملطي يتصور تيارين عكسيين يجريان في الجسم ، أحدهما يرفع الماء إلى النار ، والآخر ينزل بالنار إلى الماء . وأكد أرسطو أن الحرارة تنشأ عن الرطوبة وتستمد منها صفة الاستمرار .

وعبر جالينوس عن رأيه بأن الحرارة رطبة بالإضافة إلى كونها حارة، وأضاف أن الغذاء موجود في الجسم على شكل ثلاث رطوبات متسلسلة : أولاها في الدم، ثانيتها في المجال الخارج عن الأنسجة، وثالثتها داخل الأنسجة. وأضاف ابن سينا إلى هذه الرطوبات الثلاث رطوبة رابعة ، إذ قال إن الرطوبة من نوعين : الأول تشكله الأخلاط الأربعة ، والثانى يشمل الفضول وغير الفضول ، وهذا الأخير ينفذ إلى الأعضاء من الغذاء ، وهو مكون من : الرطوبة المحصورة في تجاويف العروق الصغيرة، ورطوبة ثانية منبثة في الأعضاء ، وهي معدّة للتحول إلى غذاء إذا فقد البدن الغذاء، وثالثة حديثة الانعقاد ومتحولة إلى جوهر الأعضاء ، أما الرطوبة الرابعة (وهى التى أضافها ابن سينا وأشار سرابيون من قبله إليها) فمبدؤها من النطفة ، والنطفة من الأخلاط (القانون — الجزء الأول ، الفن الأول ، التعليم الرابع في الأخلاط ، الفصل الأول) .

ويبدو من هذه النصوص ومن غيرها أن « الرطوبة » كانت تفهم على أنها جوهر أساسى يتخلل الجسم عامة ، ويحيي أنسجته ، ويصل بين أجزائه ، وأن

---

(١) انظر مقال هول : —

Hall, T. S., Life, Death, and the radical moisture, 1971, Clio Medica, Vol. 6, No. 1, pp. 3-18.

وجالينوس (مرجعنا رقم ٢٥ ، ص ٥٠ — ٥٣) ، وسيجل (مرجعنا رقم ٣١ ص١٦٤ — ١٦٨)

الشيخوخة تأتى عند ضياع هذه الرطوبة وبصفة خاصة عند ضياع الرطوبة التى تنشأ من النطفة .

وقد ترعرعت هذه النظرية خلال القرون الوسطى وفي عهد النهضة الأوروبية وتشعبت فاتخذت أشكالا متباينة تبعا لنزعات الأطباء والفلاسفة ومذاهبهم المختلفة . ومنها نستطيع تقدير أهمية ضياع الرطوبة عند المصابين بديا بيطس في نظر هؤلاء الأطباء

وقد اغفل ابن سينا طعم البول السكرى الذى عرفه الهنود والصينيون قبله بقرون ، لاستنكاره تذوقه ، فقد قال في طرق اختبار البول : « ومن الناس من يدخل في هذه الأجناس جنس اللمس وجنس الطعم ونحن أسقطناها تفردا وتنفرا من ذلك » هذا وقد ذكر الحلاوة دون ربطها بالطعم أو بمرض البول السكرى حيث قال (في الفصل الرابع من الجملة الثانية من التعلم الثالث من الفن الثانى من الكتاب الأول ، في دلائل رائحة البول) : « والرائحة الضاربة إلى الحلاوة تدل على غلبة الدم » ، وهو يعنى المزاج الدموى الناتج عن غلبة خلط الدم ، إذ أنه أسند في سياق الكلام الرائحة المنتنة إلى الصفراوية ، والمنتنة إلى حموضة إلى السوداوية ، الخ .

وإذا استثنينا الأسباب المحلية المسببة لتواتر التبول — وهو يختلف عن الإدرار الصحيح — وجدنا البغدادى يرد هذا المرض إلى الأسباب التقليدية التى سادت الفكر الطبي منذ عهد الإغريق ، وهى : نارية تجتذب الرطوبة ، اتساع مجارى الكلا ، ضعف القوى القابضة ، استرخاء عضلة عنق المثانة ، وتشبيه إدرار البول بزلق الأمعاء ، فأدى هذا التفكير بالأطباء إلى وصف المواد المرطبة والحمامات والكمادات الباردة وماء الثلج لإزالة الحرارة ، والأدوية القابضة ، من جهة لقبض المجارى المتسعة وتقوية عضلة عنق المثانة ، ومن جهة أخرى لأقلال الإدرار قياسا على ما تفعله هذه الأدوية في الأمعاء ، ووصف الأغذية الخشنة أو الغروية للإقلال من المائية والرطوبة في الجسم وفي الدم ، وبالتالى للإقلال من مائية البول .

وإننا ، إذ نقر بأن فائدة هذه الطرائق وهميـــة ، ومبنية على قياسات ليس لمقدماتها أساس من الصحة ، علينا أن نعترف بأنها كانت نتيجة طبيعية للنظريات القائمة حينئذ ، والتي بنيت على نظرية الأخلاط والطبائع .

غير أن شيئا من هذا لم يبتدعه عبداللطيف ، بل نراه مكتفيا بتكرار أقـــوال غيره في استفاضة ، وإن ادعى عدم رغبته في التكرار والتطويل .

أما الجزء الثالث ، وهو الخاص بالدفاع عن السفرجل ، فإنه يقدم لنا مثالا كاملا للأسلوب الفكرى الذى اعتاد علماء القرون الوسطى سلوكه ، وهو الذى يبني استنتاجاته على معطيات قبلت على أنها حقائق أزلية ، فكان النقاش يدور حول الطبـــائع ودرجاتها ، وكان الاقتناع يأتى عن البراعة الكلامية ، وليس عن الملاحظة الواقعية . ولم يختلف انتقاد عبداللطيف لابن سينا عن هذا النمـــوذج الكلامى ، بل إننا نعجب من طول باع عبداللطيف في مناقشة السفرجل ، التى تبدو لنا اليوم تافهة وغير ذات موضوع .

الباب السادس

شخصية عبد اللطيف البغدادى

إن شخصية هذا العالم المتجول تستحق دراسة مستفيضة لما أثارته في نفوس معــاصريه من مشاعر قوية ، تمتد من الإعجاب المفرط إلى السخط العنيف .

ولــكى نستطيع أن نستنبط صورة على شىء من الدقة لشخصية عبد اللطيف البغدادى ، من بين هذا الركام الضخم من أقوال رواته ومعاصريه ، ينبغى أن نلتمس خطوط هذه الصورة من كل المصادر المتوافرة لدينا ، وهى :

أولا — ما رواه عنه ابن أبى أصيبعة في كتابه طبقات الأطباء (١) .

ثانيا — ما كتبه عنه الوزير جمال الدين أبو الحسن على بن يوسف القفطى في كتابه « إنباه الرواة على أنباه النحاة » (٤٩) .

ثالثا — ما رواه البغدادى عن نفسه وعن حياته ، منقولا عن ابن أبى أصيبعة ، وعما جاء في النصيحتين (ص٢٧) .

رابعا : ما ذكره عنه آخرون من كتاب ذلك العهد أو ما يليه .

على أن قسط الشهادات الثلاث الأولى من الدقة هو قسط أية شهادة بشرية تتعرض لنوازع المؤثرات الشخصية .

فشهادة ابن أبى أصيبعة نابعة من معرفة شخصية بعبد اللطيف البغدادى، لعلها تأثرت بشعوره نحوه ، وهو صديق لجدّه ، وأستاذ لأبيه وعمه ، وهو شعور

من الطبيعى أن يكون شعور إجلال وتكريم ، ولعل خير دليل على ذلك هو ذلك الباب المستفيض الذى أفرده له من كتابه ، واستغرق حوالى عشرين صفحة (١) ، حاول أن ينصفه فيها قدر ما يستطيع ، فتراه إذ يقول عنه إنه كان « مشهورا بالعلوم ، متحليا بالفضائل ، مليح العبارة ، كثير التصنيف . . . متميزا في النحو واللغة العربية ، عارفا بعلم الكلام والطب » وإنه « قد اعتنى كثيرا بصناعة الطب لما كان بدمشق ، واشتهر بعلمها ، وكان يتردد عليه كثير من التلاميذ وغيرهم من الأطباء للقراءة عليه ، » . . . تراه يصفه في نفسه الوقت « بأن كتابته كانت أبنغ من لفظه ، وأنه ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه ، وكان يستنقص الفضلاء الذين في زمانه ، وكثيرا من المتقدمين ، وكان وقوعه كثيرا جدا فى علماء العجم ومصنفاتهم ، وخصوصا الشيخ الرئيس ابن سينا ونظرائه » .

إن ابن أبي أصيبعة يحاول أن يصف البغدادى بما له وما عليه ، وإن غلب على وصفه إياه التقدير والإعجاب .

أما شهادة القفطى على البغدادى، فهى شهادة تتسم بنوع من التحامل الشاذ العجيب ، والهجاء المقذع البالغ حد السباب .

والمتأمل في هجاء القفطى لعبد اللطيف البغدادى لا بد أن تطالعه منه عدة أمور تستحق التفكير :

١ — إنه لم يقع لعبد اللطيف البغدادى على حسنة واحدة ، أو مزية واحدة قط ، وهذا يخالف ما كتبه عنه كل رواته في ذلك العهد ، كما يخالف ما يمكن استنتاجه مما بقى من نقده لجالينوس أو من كتابه في وصف مصر وصفا شائقا محيطا ، قل شبيهه في ذلك الزمان .

٢ — اجتماعه بالبغدادى ، واختباره إياه على ما يقول ، وخروجه من هذا الاختبار بأن البغدادى فيما يدعيه ، كالأعمى الذى يتحسس طريقه ، ويدعى حدة النظر ؟ . . . دون أن يذكر في أية مواد من المواد المتعددة التى تناولها

البغدادي كان هذا الاختبار ، وهل ترى حدث هذا الاختبار ، في غرفة مغلقة ، وفي ورقة سرية ؟ ودون شهود على الإطلاق ؟ .

٣ — اعتماده في وصف البغدادى ، وتقييم علمه ، وهو في مصر ، على شهادات أشخاص ليس لهم في تاريخ العلم وزن معروف كالحاجب لؤلؤ ، وبعض نكرات من الطلبة المصريين الذين يقول عنهم إنهم « اختبروه ، فقصر في كل ما ادعاه ، فجفوه » ثم على شابين كوفيين يعرفان بولدى إسماعيل بن حجاج المقدسى كاتب الجيش ، روى عنهما أنهما أخذا عن البغدادى من العربية ما زادهما يبسا ، وعمى قلب ، ولكنة لسان » . . . إن اتخاذه لكل هؤلاء الأحداث مصادر للحكم على البغدادى ، أمر يدعو إلى كثير من الشبهة فيما يقول .

٤ — سؤاله عنه — لكى يستوثق من رأيه فيه ! — جماعة من أهل علوم متفرقة ، قد كان يدعيها — كما يقول ؛ وذكرهم من أمره ، بعد أن نظروه وكلموه نفس ما وصل إليه التنيسى عن طريق الاختبار الشخصى . . . فمن هم هؤلاء العلماء ؟ وما مقامهم من العلم ، وما حظهم منه ؟ وهل لم يجد القفطى من أسمائهم اسما واحدا يذكره ولو على سبيل المثال ؟ .

٥ — ذلك الإيغال في هجائه عن طريق شكله ، وهيئته ، وقصر قامته ، وما يقوله عنه من « دمامة الخلقة ، والنحول ، وقلة لحم الوجه » إلى غير ذلك مما يصفه به من « قلة الغيرة » التى يستعيذ القفطى بالله منها ، والسخرية من تلقيب زيد بن حسن الكندى له « بالمطجّن » وشيوع هذا اللقب عليه ، والألقاب على ما يقول القفطى تنزل من السماء ؟ . . . إن هذا الإيغال لا يتفق البتة مع أقل قسط من حسن النية والحيدة ، الذى ينبغى أن يتحلى به المؤرخون .

٦ — ذلك القدر من الشماتة الذى أبداه القفطى نحو البغدادى ، وهو يذكر سفره إلى العراق آخر حياته ليحج ، ومرضه ببغداد ، ومداواته لنفسه بطبه ، وموته نتيجة لهذه المداواة ؟ — كما شاء الله — ووقوع القفطى على بعض كتبه

التى بيعت في أسواق حلب ، وحكمه عليها بأنها « في غاية الانحطاط عن رتبة الـكمال ؟ » .

٧ – إن الـكاتب والمكتوب عنه ، لا يبدو أنهما تلاقيا كثيرا ، فقد قضى القفطى معظم حياته في حلب ،مستوزرا لـكثير من ملوكها المتعاقبين ، في حين أن البغدادى لم يقض في حلب إلا فترات قصيرة ، وكان يجرى عليه فيها رزق على طبه ، على ما يقول القفطى ، وما هكذا تجرى الأرزاق على أصحابها بلا عمل ، أو تهبط عليهم هبوطا من السماء .

إن شهادة القفطى على البغدادى شهادة تغشاها الريب والشكوك ، ويشيع فيها التحامـل الشاذ الغريب ، ولعل مصدر ذلك كله أن يكون البغـدادى ، بحكم ما عرف عنه من الصلف والغرور ، لم يول صاحبه حين مرّ بحلب أى قسط من الاعتبار ، بدليل أنه أهمل ذكره تماما حين تحدث عن نفسه وعن تنقلاته بين البلاد . . . وبينما يشيد البغدادى بالقاضى الفاضل ومآثره عليه حين كان القاضى الفاضـل بدمشق وزيرا لصلاح الدين ، نجده لا يذكر عن القفطـى في حلب شيئا – أىّ شىء – أو يتناوله بقدح أو مدح على الإطلاق .

ومن المستحسن هنا أن ننقل شهادة القفطى كاملة عن عبد اللطيف البغدادى إذ يقول :

« هو أبو محمد بن أخى سليمان الموصلى ، المدعو بالموفق ، الملقّب بالمطجّن ، كان يدعى معرفة النحو واللغة العربية وعلم الكلام والعلوم القديمة والطب . . . خـرج عن بغداد إلى الشام ، وقدم مصر بعد سنة ثمانين (ولعله يعنى خمسمائة وثمانين) ، ونزل في مسجـد باب زويلة ، وتعـرف بالحاجب لؤلؤ ، وادعى ما ادعاه ، فمشى طلبة المصريين إليه واختبروه ، فقصّر في كل ما ادعاه فجفوه ، وأقام بها مدة لايعبأ به . ثم نفق على شابين كوفيين بعيدى الخاطر يعرفان بولدى إسماعيل بن حجـاج المقدسىّ كاتب الجيش ، فنقلاه إليهمـا ، وأخذا عنه من العربية ما زادهما يبسا وعمى قلب ولكنة لسان ، ثم خرج بعد ذلك إلى دمشق ،

وادعى الرواية ، فقرأ عليه بعض المبتدئين .

« وكان دميم الخلقة، نحيلها، قليل لحم الوجه ، قصير الخلقة ، ولما رآه زيد بن الحسن الكندى لقبه المطجّن – والألقاب تنزل من السماء – فشاعت ولم يعرف بعد ذلك إلا بها . وكان يدعى تصانيف كتب ما فيها مبتكر ، وإنما يقف على تصانيف غيره ، فإما أن يختصر أو يزيد ما لا حاجة إليه ، وهى في غاية البرودة والركاكة . وكان إذا اجتمع بصاحب علم فرّ من الكلام معه في ذلك العلم ، وتكلم في غيره مغربا ، ولم يكن محققا في شيء مما يقوله ويدعيه » .

« ولقد اجتمعت به واختبرته فرأيته فيما يدعيه كالأعمى الذى يتحسس ويدعى حدة النظر ، وما وثقت من روحى بذلك حتى سألت جماعة من أهل علوم متفرقة قد كان يدعيها ، فذكروا من أمره بعد نظره وكلامه نظير ما علمته منه » .

« ومن أسوأ أوصافه قلة الغيرة ونعوذ بالله من ذلك » .

« وقطن حلب في آخر عمره ، وأجرى له بها رزق على الطب ، وهو لا يعلمه » .

« وخطر له في شهور سنة ثمان وعشرين وستمائة السفر إلى العراق ليحج ، فمرض ببغداد ، وأخذ في مداواة نفسه بطبه ، فمات – كما شاء الله – في شهور سنة تسع وعشرين وستمائة ، وأبيعت كتبه بحلب ، فوقعت على شيء منها ، وهى في غاية الانحطاط عن رتبة الكمال . ونعوذ بالله من فتنة الدعوى » .

وهنا لنا أن نتريث لنعرف شيئا عن القفطى قبل أن نأخذ برأيه ، فقد قال عنه العالم المستشرق الألمانى جوليوس ليبرت (Julius Lippert) في الديباجة التى وضعها لكتاب (تأريخ الحكماء) الذى ألفه القفطى (٥٠) ، والذى تولى هذا المستشرق نشره أول مرة سنة ١٩٠٣ م : « إننا إذا قيمّنا شخصية المؤلف (أى القفطى) وإذا عددنا ثناء ياقوت عليه غير واقعى لما ناله ياقوت من العطف من جانب القفطى ، فإن لدينا مواقع عديدة في كتاب (التأريخ) نراه فيها كأنما نواجهه بشخصه ، والصورة التى تتجلى لنا من قراءتها صورة وديّة قريبة إلى النفس ،

نجده فيها باحثا لا يكلّ ، أمينا في كل صغيرة وكل كبيرة ، يذكر مصادره كتابية كانت أو شفوية ، ولا يتأخر عن الاعتراف بأن أبحاثه في هذه النقطة أو تلك كانت غير مجدية ، أو بأن ذكره لمصدر كتابيّ كان مستمدا من ذاكرته ، أو بأنه نسى اسما أو تاريخا ، وهو في مجادلاته يلتزم الواقعية ويدلى بنقد صحيح عند تناوله نقطا جدليــة . وقد كان ، مــع ثقافته الشاملة وبخاصــة في ميدان الفلسفة ، مسلما مؤمنا ... وقد وقاه عمق هذه الثقافة من التعصب الدينى ، فقد اعترف بفضل غير المسلمين في محله ، وصادق الطبيب اليهودى يوسف بن يحيى بحلب (انظر ص ٢٨) صداقة وفية ، ولــكن روح النكتة لم تنقصه ، كما ظهرت في هجائه لأهل دير البلاص) لبخلهم ، وذلك أنه حين دخل هذه القرية لم يقــدم له أهلهــا واجب الضيافة ، ثم أتاه رجل من أهل مصر ، يحمل جفنة بها دجاج وبيض وغير ذلك ، كانت له زوجة تغشى أهاه بقفط وكان اسمها أم سراج ، فكتب على لوحة ، على سبيل الهزل لا الجدّ ، كما قال :

جُزِيتِ أمّ سراج كل مــكرمة • فليس في الدير للأضيــاف إلاك
ولا سقى الله أرضا قد حلَلْتِ بها • ودُمت في نعمــة البارى وحيّاك
فأنت كالورد حل الشوك جانبــه • أباد ربىّ شــوكا حــلّ مغنــاك

إن هذه الصورة ليست صورة رجل حقود ظالم ، وإن كان حاد اللسان .

وقد انتقد أبو الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى هجاء القفطى . قال هــذا الــكاتب عن البغدادى : « ... وفيها الموفق أبو محمد ... العلامة ذو الفنون البغدادى الشافعى النحوى اللغوى الطبيب الفيلسوف صاحب التصانيف الكثيرة ، ولد سنة ٥٥٧ ، وسمع من جماعة كثيرين ... ولقد بالغ القفطى في الحطّ عليه وظلمه وبخسه حقّه » (٥١) .

كما انتقده أيضا ابن مكتوم حيث قال (٥٢) : « وظهر به تحامل القفطى عليه بما ذكره . وهذه عادته في هضم العصريين وحط مراتبهم وإيهام أنه عارف بمنازل العلماء ، وتمييز طبقاتهم ولم يكن هناك ولا قريبا . عفا الله عنه ، ولقد عرفه من نال منه » .

وقال أبو عبد الله محمد بن عيسى الأنصارى رحمه الله : أنشدنى الشريف الفاضل شمس الملة أبو الحسن على بن محمد بن أحمد بن على بن القاسم بن عبد الملك بن محمود ، من ولد إدريس (وهو) ابن إدريس بن عبد الله بن الحسن ابن الحسنى المعروف بابن الميناوى الحلبى الزجاج قال :

أنشدنى عماد الدين سليمان بن الملك الزاهد داود بن الملك الناصر صلاح الدين يوسف بن أيوب بحلب لنفسه في الوزير ابن القفطى يعنيه :

لا تتمنى لمليك أذى ◦ إلا بأن يخدمه القفطى
كاتب سوء حتف مخدومه ◦ أكثر من يومين لا يبطى
قد أجمع الناس على نحسه ◦ وليس فيهم أحد مخطى

ومع ذلك فإن علاقة ملوك حلب بالقفطى كانت علاقة تقدير واحترام ، فقد كان يكرر طلب الإعفاء من مهامه ، فلا يكادون بعد طول إصرار يستجيبون له ، حتى يعيدوا استخدامه في إدارة ديوانهم ، وقد قام بهذه المسئولية الخطيرة ثلاث مرات : أولاها في خدمة الظاهر غازى حتى وفاة سيده سنة ٦١٣ هـ ، والثانية من ٦١٦ إلى ٦٢٨ هـ ، وثالث مرة في خدمة الملك العزيز من ٢٥ ذى القعدة ٦٣٣ هـ إلى ١٣ رمضان ٦٤٦ حين توفاه الله .

أما عن شهادة البغدادى عن نفسه ، كما رواها عنه ابن أبى أصيبعة ، وسنعرض لها بعد قليل بشيء من التفصيل ، فيجدر الأخذ بها في شيء من التحفظ ، لصعوبة الالتزام بالأمانة التامة في أية سيرة ذاتية ، وبخاصة من قلم شخص كالبغدادى ، عرف عنه الاعتداد بنفسه وبعلمه إلى حد كبير .

وتبقى بعد ذلك شهادات عند هؤلاء من المؤرخين لعبد اللطيف البغدادى ، ومنهم ابن مكتوم (٥٢) حيث يقول :

« قال الحافظ أبو عبد الله محمد بن محمود بن الحسن بن هبة الله بن محاسن البغدادى المؤرخ المعروف بابن النجار — رحمه الله — في تاريخ بغداد ، من

جمعه في تاريخ عبد اللطيف هذا، إنه ولد في أحد الربيعين من سنة سبع وسبعين وخمسمائة (هـ) ودفن بالوردية (ببغداد) وقت أذان العصر من يومه . قال وقرأ النحو على عبد الرحمن الأنبارى والوجيه أبي بكر حتى برع فيه وتميز على أقرانه. وقرأ علم الطب حتى أحكمه . وكان يكتب خطا مليحا، وسافر إلى الشام، ودخل ديار مصر، وهناك لقي قبولا كثيرا، وقرأ الناس عليه الأدب والطب، ورويت أكثر مسموعاته مرارا كثيرة .

وكان غزير الفضل، كامل العقل، حسن الأخلاق، متواضعا، محبا للعلم وأهله، لقيته بدمشق في رحلتي الثانية إليها، وكتبت عنه، وكان صدوقا . انتهى ملخصا » .

ولعل وصف ابن النجار للبغدادى بالتواضع، فيه تجاوز كبير ؟

وقال حاجى خليفة في كشف الظنون (٥٣) : « إن كتاب الحيوان للبغدادى ما هو إلا مختصر كتاب الحيوان لأبي القاسم هبة الله بن القاضى الرشيد، وكتاب الحيوان لابن أبي الأشعث » .

وذكر محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي الذى كتب عن البغدادى في فوات الوفيات (٢٥) « ... لقبه تاج الدين الكندى بالجدى الملتحى، لرقة وجهه، وتجعده، ويبسه ... وكان أحد الأذكياء المتضلعين من الآداب والطب وعلم الأوائل ... إلا أن دعاويه كانت أكثر من علومه، وكان دميم الخلقة، نحيلا، قليل لحم الوجه، وكان ينتقل إلى البلاد . »

وبعد هذه الملاحظات الضرورية وإن كانت عابرة فلنر ما لدى ابن أبي أصيبعة وغيره من معلومات .

عبد اللطيف رجل الدرس والعلم :

كان عبد اللطيف كثير الاشتغال، لايخلي وقتا من أوقاته من النظر في الكتب والتصنيف والكتابة، ويبدو أنه نشأ على هذا المنوال منذ أوائل حياته وهو مايزال

في عهد التحصيل، وقد ذكر عن نفسه وهو يقرأ على الوجيه الواسطى في بغداد: « وجعل يعلمني من أول النهار إلى آخره بوجوه كثيرة من التلطف فكنت أحضر حلقته بمسجد الظفرية، ويجعل جميع الشروح لى ويخاطبني بها وفي آخر الأمر أقرأ درسي ويخصني بشرحه. ثم نخرج من المسجد فيذاكرني في الطريق، فإذا بلغنا منزلة أخرج الكتب التي يشتغل بها مع نفسه فأحفظ له وأحفظ معه. ثم يذهب إلى الشيخ كمال الدين فيقرأ درسه ويشرح له وأنا أسمع. وتخرجت إلى أن صرت أسبقه في الحفظ والفهم، وأصرف أكثر الليل في الحفظ والتكرار ».

وقد دام على هذا النسق طوال حياته، فها هو ذا يصف جدول أعماله اليومي بالقاهرة: يقرئ الناس في جامع الأزهر من أول النهار إلى نحو الساعة الرابعة، ويأتي من يقرأ الطب عليه وغيره وسط النهار، ويرجع إلى الأزهر فيقرأ عليه قوم آخرون آخر النهار، وفي الليل يشتغل مع نفسه.

وقد نصح غيره بسلوك السبيل نفسه إذ قال: « ومن لم يعرق جبينه إلى أبواب العلماء لم يعرق في الفضيلة، ومن لم يخجلوه لم يبجله الناس.. ومن لم يحتمل ألم التعليم لم يذق لذة العلم، ومن لم يكدح لم يفلح ». ولعل قوله الأخير نبع عن جرح أصابه في نفسيته عندما قابل الشيخ كمال الدين كما أسلفنا، وقال له هذا الشيخ إنه يجفو عن تعليم الصبيان.

وله أقوال تضيء طريقة تفكيره وسياقة استنتاجاته وتنم على التحرر من آراء سابقيه، وهي أقوال تذكرنا بأبي الفلسفة الحديثة ديكارت (Descartes)، وتتلخص في عدم قبول القضايا قبل التحقق من صحتها، وعدم الأخذ بما لم يدرس دراسة وافية، والشك فيما لا يستند إلى برهان، والاستعداد الذهني لتهذيب المعلومات المحصلة وإعادة النظر فيها. ومن هذه الأقوال: « أوصيك ألا تأخذ العلوم من الكتب وإن وثقت من نفسك بقوة الفهم ».

كما حرص على الدقة في الدرس وعلى استمرار التحصيل وعدم الاكتفاء، وأدرك أن توقف المعرفة نقصان وقهقرة، قال: « وإذا قرأت كتابا فاحرص كل

الحرص على استظهاره وتملك معناه، وتوهم أن الكتاب قد عدم وأنك مستغن عنه ، ولا تظن أنك إذا حصلت علما فقد اكتفيت بل تحتاج إلى مراعاة لينمو ولا ينقص » .

وقد امتاز بالمثابرة على البحث وله في هذا آراء قد لا نوافقه عليها تماما لأنها تنم على وجوب فصل العلوم بحواجز منيعة ، وهى آراء كانت عجيبة في عهد آمن بوحدة العلـــم، ولا نقبلها اليوم بعد أن تداخلت العلوم بعضها في بعض وتمازجت تمازجا تستحيل معه التفـــرقة بينها ، كالطبيعة والرياضة ، أو الطب والـــكهرباء، أو الميتافيزيقيا والطبيعة، ومن هذا : « وأياك أن تشتغل بعلمين دفعة واحدة، وواظب على العلم الواحد سنة أو سنتين أو ما شاء الله فإذا قضيت منه وطرك فانتقل إلى علم آخر » ، و: « إذا تصديت لتعليم علم أو للمناظرة فيه فلا تمزج به غيره من العلوم، فإن كل علم مكتف بنفسه مستغن عن غيره فإن استعانتك في علم بعلم عجز عن استيفاء أقسامه كمن يستعين بلغة في لغة أخرى إذا علمها أو جهل بعضها » ، ويبدو أن علم اللغات المقارن (فيلولوجيا) لم يكن ابتكر بعد .

ولا يخفى ما فى هذه الأقوال من الغرور بالنفس ، وهذا الغرور لازمه طوال حياته وتجلى سافرا في تاريخه وفي كتاباته وفي تأليفه ثلاث تراجم لنفسه ، إحداها لابنه ذكرها ابن أبى أصيبعة والثانية في النصيحتين ، والثالثة هى التى اطلع عليها ابن أبى أصيبعة، ولا شك أن هذا الغرور أثر في مجرى حياته وكان سببا من أسباب عدم استقراره وكثرة تنقلاته ، ولعله كان سببا من أسباب حقد بعض معاصريه .

ولقد وصلت هذه الرذيلة فيه إلى حد الغطرسة ، وتبدو غريبة في عالم في مقامه وإن كانت مع الأسف منتشرة بين العلماء والأدباء ، ولم يفت ابن أبى أصيبعة وصفها — مع تقديره له — إذ قال « وكان رحمه الله ربما تجاوز في الكلام لكثرة ما يرى في نفسه » .

وقد تجلت هذه الظاهرة فيه منذ نشأته ، فإننا نراه يروى عن أيام تلمذته على الوجيه الوسيط أنه صار يسبق أستاذه في الحفظ والفهم .

ولم يتخل عنهـا في شبابه، حيث قال : « ولما كان في سنـة خمس وثمانين وخمسمائة، حيث لم يبق ببغداد من يأخذ بقلبي ويملأ عيني ويحل ما يشكل علي دخلت الموصل فلم أجد فيها بغيتي . . . وأقمت بالموصل سنة . . . وزعم أهل الموصل أنهم لم يروا من أحد قبلي ما رأوا من سعة المحفوظ وسرعة وسـكون الطائرة » .

وفي دمشق : « واجتمعت بالكندي البغدادي النحوي وجرت بيننامباحثات فأظهرني الله تعالى عليه في مسائل كثيرة » .

ومن الأمور المعهودة أن المرء لا يرى الرذيلة في نفسه وينصح غيره بالابتعاد عنها ، وقد وقع عبد اللطيف في مثل هذا فنراه يقول : « وينبغي أن تكثر إيهامك لنفسك ولا تحسن الظن بها ، وتعرض خواطرك على العلماء وعلى تصانيفهـم وتثبت ولا تعجب فمع العجب العثار ، ومع الاستبدال الزلل » وقد يكون خطر له أن مثل هذه النصائح اللازمة لغيره لا تليق بعالم مثله . ومن النصح الآخر الذي بذله لغيره ولم يعمل به – اللهم إلا إزاء كبار القوم – ما قاله في آداب المعاملة ولباقة التصرف :

« ولا تترفع بحيث تستثقل ولا تتنازل بحيث تستخس وتستحقر . . . واجعل كلامك كله جدلا ، وأجب من حيث تعقل ، ولا من حيث تعتاد وتألف » ، وأيضا : « إياك والغلظة في الخطاب والجفاء في المناظرة ... فإن ذلك .... يذهب ببهجة الـكلام ويسقط فائدته ، ويعـدم حـلاوته ، يجلب الضغائن ويمحق المودات ، . . . ويثير النفوس على معاندته » .

وقد تكون الضغائن ومحق المودات وإثارة الناس التي جلبها على نفسه بكبريائه وطول لسانه قد لعبت دورا كبيرا في رسم خط سير حياته، وفي كتابته هذه النصائح.

عبد اللطيف رجل الدين :

كان البغـدادي شديد الورع متدينا للغاية ، كثرت كتابته في علـوم الدين والحديث ، ومن أمثلة أقواله التي تتسم بهذه الفضيلة :

«واجعل الموت نصب عينيك والعلم والتقى زادك إلى الآخرة » و« اعلم أن الناس عيون الله على العبد يريهم خيره وإن إخفاه وشره وإن ستّره . . . فعليك أن تجعل باطنك خيرا من ظاهرك وسرك أصبح من علانيتك » .

وكان دائم النصح بمطالعة التواريخ ، وفي مصدرها سيرة النبي صلى الله عليه وسلم ،لتتبع أحواله وأقواله والاقتداء بها، فقد قال على سبيل المثال : «واجعل كلامك لاهوتيا في الغالب ولا ينفك من خبر أو قرآن أو قول حكيم أو بيت نادر أو مثل سائر » .

وبالتالى نصح بحساب النفس : « ينبغى أن تحاسب نفسك كل ليلة إذاأويت إلى منامك » . وله دعاء يقول فيه : « اللهم أعذنا من شموس الطبيعة وجموح الردية ، وأسلس لنا مقاد التوفيق ، وخذ بنا في سواء الطريق ، ياهادىالعمى ، يا مرشد الضلال ، يا محي القلوب الميتة بالإيمان ، يا منير ظلمة الضلالة بنور الإتقان ، خذ بأيدينا من مهواة الملــكة ، نجنا من ردغة الطبيعة ، وطهرنا من درن الدنيا الدنيئة ، وبالإخلاص لك والتقوى ، إنك مالك الآخرة والدنيا » . وقد ورد هذا الدعاء مع بعض الاختلاف في فوات الوفيات (٢٦) أيضا .

عبد اللطيف رجل الدنيا :

كان البغدادى حسب وصف ابن أبي صيبعة له عندما رآه آخر مرة أقام بها بدمشق ، شيخا نحيف الجسم ، ربع القامة ، حسن الــكلام، جيد العبارة ، وكان كاتبا أجود منه متكلما .

لم يزهد أمور الدنيا ولم يحتقر المال ،بل تباهى به وسرّ منه وذكر العطاءات التى بذلت له بكثير من الاعتداد ، فنراه يقول : « إنى لا أقول إن الدنيا تعرض عن طالب العلم ، بل هو الذى يعرض عنها » . وكان ينادى بأن العالم لا يحتاج إلى اقتناص المال فإن المال يجرى نحوه ، لأن «للعلم عبقــا وعــرفا ينادى على أصحابه . . . كتاجر المسك لا يخفى مكانه ولاتجهل بضاعته » .

والحقيقة أن تجولاته وعدم استقراره هي أكثر ما يسترعي النظر في حياة هذا العالم الذي ما فتئ يتنقل بين البلاد رغم الحروب الدائمة بينها . فقد أمضى سني حياته ، بعد مرحلة التعليم في بغداد ، بين الموصل ودمشق وعكا ومصر والقدس ثم عاد إلى دمشق فمصر فالقدس فدمشق ، ومن ثم رحل إلى حلب فأرزنجان فأرزن الروم فأرزنجان فكماخ فدبركي فملطية فحلب ، قبل أن يتوفاه الله في بغداد ، وكان ناويا فريضة الحج ثم العودة إلى دمشق . فيكون قد عمل في ثمان وعشرين مدينة مختلفة في خلال خمس وأربعين سنة من سني حياته العملية ، وهو ما يزال ينوي التجول .

علم عبد اللطيف البغدادي :

بغض النظر عن مكان عبد اللطيف البغدادي من تقدير معاصريه ومؤرخيه ، وما ناله على أقلامهم من استحسان واستهجان ، سواء منهم من رفعه إلى أعلى سماوات العلم والحكمة ، أو من قذف به إلى أدنى مهاوي الجهل والادعـاء ، وعن الدوافع التي يمكن أن تكون قد حفزت أولئك أو هؤلاء إلى سلوك السبيل الذي سلكه لتقييم شخصية عبد اللطيف البغدادي أو علمه ... بغض النظر عن كل ذلك فإن ثمة حقائق أربع يجب أن توضع في الميزان أمام من يحاول تقييم هذا الطبيب العربي القديم .

الحقيقة الاولى :

إن ما كتبه في كل ما تناوله من ألوان العلوم المعروفة في زمانه ، قد يكون مـن الكثرة ، بحيث يملأ المئات أو الألـوف من الرسائل والمجلدات ، وقد يكون من القيمة بحيث يضفي عليه أوفر حظ من التفوق والنبوغ ، دون لبس ولا تشكك ولا غموض . ولكن ما وصل إلينا من هذا التراث ، ولا سيما في العلوم الطبيعية ، شيء قليل ، هو وحده الذي ينبغي أن يوضع في الميزان ، وهو وحده الذي يجب أن يكون العمدة في الحكم له أو عليه ، لا ما طوته من آثاره وأعماله مجاهل النسيان ، وهو وحده الذي يستطيع أن يصدر القـول الفصل فيه بين راجح أو مرجوح .

الحقيقة الثانية :

إن مجرد عروبة عبد اللطيف البغدادي بصفته طبيبا أو عالما ،لا يجوز أن يكون لها شأن في تقييمه ، أو أن تعتبر عنصرا من عناصر هذا التقييم، فإن البحث العلمي لا يهضم مثل هذا التعصب الذي لا معنى له ولا مبرر على الإطلاق . والوقوع في مثل هذا التحيز هو وقوع في العيب نفسه الذي نأخذه على بعض مؤرخي الطب الغربيين ، الذين يغمطون العرب كل حق ، إلا حق النسخ والترجمة عن الأطباء والعلماء الإغريق .

إن التاريخ الحقيقي ، للطب العربي والعلم العربي الأصيلين ، غني عن أية شهرة ينالها عن طريق المبالغة ، أو التلفيق ، أو التهويل ، فإن العرب لديهم في هذين المجالين من المآثر والمفاخر ، ومن الرجال والأعمال ، ما يكفيهم ، وما لا يحتاج إلى مزيد .

الحقيقة الثالثة :

هي أننا حين نضع في الميزان ما وصل إلى أيدينا من رسائل عبد اللطيف البغدادي ، وكتاباته التي غمر بها أصدقاءه ومراسليه ، نجدها — بغض النظر عن أسلوبها السهل المقبول بوجه عام — تتميز بعدة سمات :

أولاها : إقباله الشديد على النقل من سابقيه دون تحرج ولا تكلف ، يسند إليهم ما ينقله عنهم تارة ، وينسى أو يتناسى تارة أخرى هذا الإسناد . وفي بعض فصول هذا الكتيب يستطيع القارئ أن يمسك بتلابيب البغدادي متلبسا بهذ « الاقتباس » .

وثانية هذه السمات : السطحية في معظم ما كتب ، إن تحرجنا من ذكر التفاهة ، بحيث يصبح من العسير وضع إنتاجه في بعض المواضيع في ميزان واحد مع كتب أسلافه في المواضيع نفسها ، أمثال جالينوس والإسكندر وابن سينا ، وسواهم ، ممن كان يبجلهم أحيانا ، ويرميهم بالجهالة وضعف المنطق في أحيان

أخرى ، وتبدو هذه السمة جلية واضحة فيما أفردنا من صفحات لتحليل بعض ما كتب من مؤلفات .

وثالثها : أن الرجل كان واسع القراءة ، جيد الحفظ ، غزير الاطلاع ، لـكن سطح معلوماته ، وإن كان من الاتساع والرحابة بحيث يمس كافة ما كان معروفا يومئذ من ألوان العلوم، فإن ذلك السطح المتسع الرحيب ، لم يكن يظاهره — مع الأسف الشديد — عمق كبير ، ولعل سبباً من أسباب ذلك كثرة تنقل الرجل،لا بين الأماكن والمدن فحسب ، ولكن كذلك بين العلوم بعضها وبعض، من نحو إلى فلسفة، ومن طب إلى كيمياء ، ومن طبيعة إلى ما وراء الطبيعة ، إلى هـذا أو ذاك من سائر ما عرف يومئذ من علوم ، بحيث لم يتسع له لا الزمان ولا المكان ، ولا شيء مما يستلزمه التفقه في مادة بذاتها ، أو التبحر في علم بعينه من هذه العلوم .

الحقيقة الرابعة :

إن الشيء الذى امتاز به عبد اللطيف البغدادى عن جدارة ، وبزّ فيه كافة معاصريه في مشارق الأرض ومغاربها ، هو ذلك الاستقلال الفكرى الذى كان يتوهج في سماء حياته ، بعض الأحيان، ببريق يخطف الأبصار ، ذلك الاستقلال الذى كان يجعل فيه للمشاهدة ، والبحث المنظم ، والاستقصاء الدقيق ، الكلمة العليا على آراء سابقيه ، وما يحيط بها من هالات التقديس .

محاولة لتحليل شخصيته

شخصية عبد اللطيف البغدادى — كما لا بد أن نكون قد رأينا — شخصية غريبة ، زاخرة بالمتناقضات . والسؤال الذى يطرح نفسه على الخاطر الآن هو : هل يمكن وضع هذه الشخصية في إطار موحد من الوجهة العلمية، بتحليـــل ما تفاعل في أعماقها من عوامل الخلق والتشكيل ؟

بعبارة أخرى ، لو فرضنا أن البغدادى عالم معاصر ، وأنه بكل ما تميز به من الأوصاف والسجايا ، ذهب إلى طبيب نفسانى يستشيره في أمر نفسه ،

وربما في بعض ما يأخذه عليه معاصروه ، ترى ماذا كان يمكن أن يكون رأى هذا الطبيب فيه ؟

لقد أتيح لنا أن نناقش مرارا وبشئ من التفصيل شخصية هذا العالم مع زميلنا الدكتور عادل الدمرداش المتخصص في الأمراض النفسانية، وخرجنا من هذه المناقشات المتعددة مجمعين على عدة أمور .

الامر الاول :

إن التقيم العلمى لأية شخصيةمن الوجهة النفسانية يعتمدفي المقام الأول على مناقشة صاحبهـــا، ومناظرته مناظرات متوالية، وربما إجراء بعض الاختبارات عليه ، والوصول من ذلك كله إلى استخلاص السمات والسجايا الغالبة على سلوكه ، والعوامل التى أدت إلى ظهور هذه السجايا وهذه السمات ، ووضعه في الإطار الملائم من الأطر المعروفة للشخصية ، أو نسبته إلى نمط بذاته من شتى الأنماط التى اتفق عليها علماء النفس في تصنيف مختلف الشخصيات ، وفي جو بعيد تماما عن شبهات الانحياز .

من أجل ذلك يصبح تقييم شخصية عبداللطيف البغدادى أو تحليلها تحت هذا المجهر المدقق ، وبعد أن مضى على خروجه من الدنيا عدة قرون ، أمرا تكتنفه الصعاب واحتمالات الخطــأ ومتاهات الشكوك ، لأن المصادر التى يعتمد عليها الطبيب في تحديد سمات شخصيته ، تعوزها الدقة ، ولا تخلو من نزعات الأهراء والأغراض ، بيد أن هذا كله ينبغى ألا يعوقنا عن القيام بهذا التقييم ، في حدود المتاح من وسائله ، وعلى ألا ننسى ما يحيط بها من الفقر والقصور .

الامر الثاني :

إن الشخصية السوية ، سوية مطلقة بمعنى النضوج الكامل ، والصحة التى تبلغ أوجها في العقل والبدن ، والكفاية التامة في الأداء داخل الذات وفي محيطها الخارجى ، والتواؤم المعقول مع المجتمع ، تلك الخصائص التى من شأنها جميعا أن تمنـــح المرء قدرة على مواجهة الحقيقة بشجاعة ، والاعتمـــاد على الذات أكثر من الاعتمـــاد على الآخرين ، وضبط النفس ضبطا يتيح لصاحبـــه

التصرف الحر على أساس العقل والمنطق ، لاتحت إملاء الأهواء والشهوات ، والقدرة على اكتساب محبة الناس لا إثارة بغضهم ، واحتضان الكثير من الاهتمامات ، والخضوع الراضي لمعايير السلوك العام ، واتخاذ فلسفة في الحياة مبنية على التفتح والانطلاق والطموح المعقول ، أكثر مما تبنى على العـزلة والانطواء والخمول . . . إن الشخصية السوية بهذه المفهومات وأمثالها قلما توجد ، بل هيهات أن توجد ، ولكن حسبنا من السوية في هذا المجال التمتع بحظ موفور من هذه المؤهلات أو من أكثرها على الأقل ، وعلى قدر الحظ الذى يناله المرء منها ، أو من نقائضها ، يكون انتماؤه إلى نمط بعينه من أنماط الشخصية التى يصفها العلماء .

الامر الثالث :

إن شخصية الإنسان تتدخل في تشكيلها عدة مؤثرات ، منها ما يتصل بالتركيب الجسمي ، من حيث الطول والقصر ، والسمنة والنحول ، والوسامة والدمامة [1] ، ومنها ما يتصـــل بالمزاج من حيث التفتـــح والانطلاق ، أو التقـــوقع والانطـــواء [2] ، إلى غير ذلك من عوامل التأثير والتشكيل ، التى لا مجال للخوض فيها في مثل هذا المجال المحدود ، كما أن حصيلة هذه العوامل المختلفة هى التى تملى على المرء أن يسلك سلوكا معينا ، في موقف معين ، في حدود تتسع وتضيق تبعا للظروف والأحوال ، ومجموعة هــذه الألوان من السلوك هى التى تحدد النمط من أنماط الشخصيـــة الذى ينتمي اليه الإنســـان

الامر الرابع :

إن هذه الأنماط ليست دوائر مستقلة ، أو « خانات » مغلقة على ألـــوان بذاتها من ألوان السلوك، بحيث تستطيع – وأنت آمن من الزلل – أن تضـــع شخصية إنسان ما في هذه « الخانة » أو تلك ، لأنه يتميز بما تحتويه هـــذه

(١) نظرية كريتشمر الألمانى Kretschmer

(٢) نظريـة يونج . Jong

« الخانة » من الألوان والسمات ، ولكنها مجرد تصانيف تقريبية قد يتداخل بعضها في بعض ، ويأخذ بعضها من بعض ، وقد يوجد في الشخص الواحد سمات من أكثر من هذه التصانيف ، إلا أن الأمر تغلب على سلوكه أكثر السمات التي تميز نمطا أو آخر من أنماط الشخصية ، وبحكم هذه الغلبة يوضع بين المنتمين الى هذا النمط بالذات .

الامر الخامس :

إن الأسماء المطلقة على هذه الأنماط ، وإن شابهت أسماء بعض العلل العقلية السافرة ، ليس معنى هذا أن صاحب هذا النمط أو ذاك من أنماط الشخصية مصاب بالعلة العقلية السافرة المشابهة في التسمية ، ولكن معناه أنه يتصف بميول أو نزعات تشبه الى حد ما ، ميول ونزعات الشخص المريض ، دون أن تخرج عن الحدود التي تمكن المريض من الحياة حياة طبيعية في مجتمعه ، وإن تألم هو ، أو آلم سواه أحيانا بهذه الميول والنزعات ، أوحملت منه على محمل الشذوذ في بعض الأحيان[1] . . . كما أن هذه الميول والنزعات في النمط الواحد من أنماط الشخصية ، لا تقف عند مستوى واحد من البساطة أو الشدة ، ولكنها قد تهون ، أو تشتد تبعاً للمواقف والظروف والأحوال والشخصيات .

الامر السادس :

إن أشهر هذه الأنماط من أنماط الشخصية هي :

١ ــ الشخصية العصبية (Neurotic)

وتتسم بالعزوف عن أي عمل شاق ، وسرعة التعب ، والمخاوف الوهمية من الظلام والحيوانات . الخ phobias ، والخوف من التنافس ، ومركبات النقص ، والتحرج ، والكبت inhibition ، ونقص الطمأنينه ، والحساسية

(١) هذا التشابه يعبر عنه في اللغة اللاتينية بلا حقة Oid ، مثل «بارانويد» أي الشبيهة بمرض البارانويا paranoia ، جنون الاضطهاد ، و«الهسترويد» أي الشبيهة بالهستريا ، وهكذا .

وتقلب المزاج ، والقابلية للإيحاء ، والتخوف من المناقشة ، وأكثر أصحاب هذه الشخصية يميلون إلى الانطواء ، أو ربما إلى الاكتئاب .

٢ ـ الشخصية الشبيهة بالهستيرية Hysteroid

ويتميز أصحاب هذه الشخصية بالأنانية ، وعدم النضوج الوجداني ، وضعف السيطرة على الانفعالات ، والقدرة غير المعتادة على التخيل ، والحساسية ، وتقلب المزاج ، وعدم القدرة على التعاطف مع الآخرين ، والاندفاع ، والانفصال (النسيان ، التجول الليلي ، الخ . . .) والتأثر بالإيحاء ، وكثرة الشكوى من العلل البدنية الوهمية ، والمبالغة فيما يكون موجودا منها بالفعل .

٣ ـ الشخصية الشبيهة بالمنفصمة Schizoid

وأهم مظاهرها الميل إلى العزلة والانطواء . والاستيحاء الشديد ، وضعف القدرة على الاندماج مع الغير . والاسترسال في أحلام اليقظة . والمثالية ، والفطنة والذكاء . وفرط التدين . وأصحاب هذه الشخصية يتمتعون في أثناء طفولتهم بهدوء يضفي عليهم ممن حولهم صفة الطفولة النموذجية ، وهم بعد بلوغ سن الرشد ضعيفو الاهتمام بالجنس الآخر ، مضطربو الحياة العاطفية (يبتغون الحب ولا يجودون به) ، وهم شديدو الحساسية ، أيقاظ الضمائر إلى حد أنهم كثيرا ما يعانون من عقدة الذنب ، ومن الشعور المبالغ فيه بخيبة الأمل frustration . كما أنهم يحبون القراءة ، ويمتازون طلاباً . ويعزفون عن الرياضة البدنية . وهم يفرطون في الطاعة وإن كانوا على شيء من العناد .

٤ ـ الشخصية الشبيهة بالدورية (أو المتقلبة) Cycloid [1]

وهي شخصية متفتحة ، منبسطة ، يميل أصحابها للبدانة ، والثقة بالنفس ، والمرح . وحب الفكاهة وكثرة الكلام ، وطيبة القلب ، والتعجل ، والطموح . والطرافة ، والإقدام على أعمال كثيرة في وقت واحد . والنشاط ، والواقعية في التفكير . وتقلب المزاج بين المرح والاكتئاب . وهم شديدو

(١) الدورية هي نوع من الذهان الدوري الذي تتعاقب فيه نوبات الهوس ونوبات الاكتئاب .

الميل للقراءة ، وإن لم يمتازوا في حقبة الدراسة . ولايخلو ن من ميل إلى العدوان .

٥ ــ الشخصية الشبيهة بمرض البارانويا (جنون العظمة والاضطهاد) Paranoid

وتبرز فيهم صفات الشك، والعناد، والغرور ،والغيرة ، والحسد،والطموح ، والأنانية ، وحب السيطرة ، والتفرد ، والتطرف ، وبغض القيود والنظام، وكراهية المجتمع ، واحتقار الغير، وضعف الثقة بالناس .

٦ ــ الشخصية الصرعوية Epileptoid [1]

وتتصف بنوع معين من الأنانية ، وبسرعة الإثارة والاندفاع ، وعدم الاكتراث بمصالح الأقران . والبطء في التفكير . والتدين السطحي . والتناقض ، وتقلب المزاج ، وسوء الطبع. واللزوجة في العلاقات الشخصية، والعمل من أجل الإطراء والمديح ليس إلا ، وقوة الدوافع الجنسية

٧ ــ الشخصية السيكوباتية Psychopathic

ويتميز صاحبها بالأنانية المطلقة . وعدم القدرة على وضع نفسه موضع الآخرين ، والاستهتار ، واعتبار الدنيا ملكا له ، وإزاحة المعوقات من طريقه بلا رحمة ، وكثرة التباهي حتى بما لم يحدث من أحداث ، والكذب دون تحرج . حتى لو كان الغير يستطيع التحقق مما يرويه

٨ ــ الشخصية ذات الهوس الهين Hypomaniac

وأهم سماتها التفتح . والانبساط ، وفرط النشاط ، وكثرة الحركة . وكثرة التجوال مع قلة الاستقرار في مكان واحد (وهو مايسميه الألمان (Wanderlust) . وحدة اللسان . وسرعة الاستثارة ، وغزارة الفكر دون تعمق ، والواقعية والعيش في الحاضر ، وفرط التباهي ، والمبالغة التي

---

(١) أي الشبيهة بحالة المريض بالصرع .

قد تتنافى مع الحقائق ، والسهولة في اكتساب الأصدقاء والأعداء على السواء ، وحضور البديهة . والميل إلى المرح

* * *

والمتأمل في شخصية عبد اللطيف البغدادى تحت هذه الأضواء ، وفي حدود ما أسند إليه من صفات ، سواء على قلمه هو نفسه ، أو على أقلام معاصريه والمؤرخين له ، لابد أن تستلفت نظره بعض السمات :

١ — كثرة التجوال .

٢ — غزارة الاطلاع دون تعمق (مما جعل القفطى في أهون أوصافه له من هذه الناحية يقول إن كتاباته إما منقولة ، وإما تافهة) .

٣ — تنوع الاهتمامات بين طب وفلسفة ، وطبيعة وما وراء الطبيعة ، وكيمياء ونحو ، وما سوى ذلك ، دون أن يتفقه في أى منها تفقه العالم الأصيل.

٤ — الصلف والغرور والغطرسة وحدة اللسان وكثرة الكلام وفرط النشاط والميل إلى العدوان .

٥ — المبالغة . وتبدو أكثر ما تبدو في وصف ما شاهده بمصر من أحداث مؤلمة فى أثناء المجاعة التى عاصرها ، وإسهابه في وصف ما رأى من أكل لحم البشر ، إسهابا يجعل المرء يتساءل أكان عبد اللطيف البغدادى يتلذذ بترداد هذه الأوصاف البشعة ، ويستمتع بها ، كأنه مصاب بلون من « الساديه » المهينة التى تجعل صاحبها يطنب في وصف ما يشاهده من الآلام ، دون أن يتسبب هو في إحداث هذه الآلام ؟

٦ — الميل إلى الانطواء ، مع قليل من التفتح والانطلاق

* * *

وأول مايتبادر إلى الذهن حين يحاول المرء وضع هذه السمات في الإطـــار الأكثر مناسبة لها من أطر الشخصيه التي ذكرناها ، أن شخصية البغـــدادى كانت خليطا من نمطين من أنماط الشخصية هما « البارانويدية » بالحـــظ الأرجح ، مع « الهوس الحين » بقسط قليل .

أخذ من النمط الأول التعالى على الآخرين وازدراءهـــم ، والحساسيـة المفرطة ، والميل إلى العزلة ، والعناد ، والإصرار على أفكار معينة يتشبث بها ويكافح من أجلها بغض النظر عن النتائج . وتفسير مايحدث من حولـــه بأنه مقصود لجرحه ، وقلة الأصدقاء للافتقـــار إلى الدفء الوجدانى اللازم لتكوين الصداقات . . . مع مايثيره هذا الجانب الأغلب من شخصيته مـــن الإعجاب بإصراره على الدفاع عن آرائه ، وإن لم ينل من هذا غير البغضاء .

وفيه من ملامح « الهوس الحين » عناصر التعالى والغطرسة والعناد كذلك . والإسهاب في وصف المناظر المؤلمة . وقليل من الميل إلى التفتـــح والانطلاق

وما من شك في أن النزعات البارانويدية كان لها بعض الفضل في إثارة حفيظة معاصريه ، ودفعهم إلى نقده ، ومعاداته من كل سبيل .

بيد أن هذه النزعات ليس من شأنها البتة أن تهبط بمستواه العقلى ، أو تحول بينه وبين السمو إلى أعلى ذرا العلم والمعرفة ، فإن التحليل النفسانى للكثير من عمالقة العلم والفلسفة ، بل أغلبهم ، يكشف عن أمثال هذه النزعات .

* * *

تلك صورة اجتهادية للتشخيص النفسانى لشخصية عبد اللطيف البغدادى . لانتبين فيها التيارات والعوامل الدفينة التي نبعت فيها هذه الشخصية وسجاياها ، فإن هذه التيارات والعوامل لايمكن تحديدها اليوم بعد عدة قرون من العصر الذى عاش فيه البغدادى إلا بالتخمين ، ارتكازاً على بعض القرائن المستمدة من هنا أو هناك .

إننا إذا نظرنا الى شخصية الفرد على انها تفاعل بين البذرة والتربة ، أو الوراثة والبيئة ، أو النوازع الخلقية والمؤثرات الخارجية ، لتحتم علينا أن نبحث عن بعض آثار هذين النوعين من العوامل في تاريخ البغدادي .

يقول شكسبير في مسرحية « يوليوس قيصر » « ليس العيب في نجمك يابروتوس ، وإنما العيب فيك أنت » . . . وعيب البغدادي الخلقي كان قصر قامته ونحوله ، وقلة لحمه ، ودمامة قسمات وجهه ، وهي عيوب تنعكس — في رأي علماء النفس — على صاحبها انعكاسا يؤدي إلى بعض المظاهر البارانويدية — على سبيل التعويض .

أما عن العوامل البيئية والأحداث التي قد تكون أسهمت في تثبيت هذه الانعكاسات الخلقية ، وتوجيهها ، فإننا نجد من بينها استهزاء الناس بقبحه ودمامته ، وشيوع تلقيبه بألقاب تحمل كل معاني هذا الاستهزاء كالمطجن و والجسدي الملتحي ! ثم احتقار الشيخ كمال الدين عبد الرحمن الأنباري إياه ، إذ قال لأبيه بعد امتحانه إياه ، وهو ما زال ناشئا في طلب العلم : «إني أجفو عن تعليم الصبيان . . . احمله إلى تلميذي الوجيه الواسطي » . ولعل كبرياءه أصيبت يومئذ بجرح عميق ، بل لعله أصيب بجراح أكثر من هذا القبيل لم يسجلها التاريخ ، وفي الهجاء المزري الذي اختلف عليه من معاصريه ما يشير إلى احتمال تكرر مثل هذه الجراح .

فهل كانت كبرياؤه وصلفه وغطرسته انعكاسا لازدراء الناس له ، وتطبيقا للمثل القائل : « كل ذي عاهة جبار » ؟

ثم هل يكون إعجاب والده به في طفولته ، واستمرار دفعه دفعا إلى الدراسة ، وحياة الطفولة الجادة في محيط الفقهاء والشيوخ ، والبعد عن اللهو في سني الصبا والشباب ، وبالتالي الحرمان من الاحتكاكات والاتصالات البشرية التي تصقل الشخصية ، ويؤدي انعدامها إلى تعويق النضوج العاطفي ، وبقاء المرء طفلا في سلوكه وانفعالاته العاطفية ، واستجاباته للمؤثرات والأحداث ، مهما بلغ من

صفاء الذهن واتساع المدارك . . . هل يكون لكل ذلك أثر في صبغ شخصيته باللون الذى أشرنا اليه ؟

كل هذا محتمل ، وإن كانت سجايا البغدادى وخلاله ، سواء أعددناها محامد له أو مذام ، وإن كانت هى المرعى الخصب الذى أنبت استقلاله الفكرى ، واستعداده للثورة الذهنية . ولا شك أن هذا الاستقلال الفكرى الذى دفعه إلى التجرؤ على مهاجمة جالينوس ، في وقت كان تحدى جالينوس فيه يعتبر زندقة قد يكون عقابها الموت حرقاً في بعض البلاد . لاشك فى أن هذا الاستقلال كان مصدراً لكثير من متاعب حياته ، كما أثار عليه كثيرا من ضغائن معاصريه .

إن هذه الجرأة على تحدى جالينوس مع ما كان يكنّه له عبـد اللطيف البغدادى من تقدير واحترام – وتفضيل المشاهدة ، وملاحظة الطبيعة ، على الانقياد إلى آراء جالينوس ، مهما بلغت من السطوة والسلطان ، كانت لونا من ألوان الشجاعة العلمية بخاصة في زمانه ، يجب الاعتراف بها لعبد اللطيف البغدادى على أنها مزية فائقة ، ربما غطت كثيراً مما كان يرمى به من عيوب ، ولعلها هى الشفيع الوحيد له في البقاء حيا مذكورا على صفحات التاريخ .

بعبارة أخرى : إن عيبا من عيوب عبداللطيف البغدادى ، كما كان يراه معاصروه ويصفونه من أجله بالغرور والادعاء ، وهو هذا الاستقلال الفكرى ، والاعتماد على المشاهدة أكثر من الاعتماد على أقوال الثقات ، كان له عليه فضل الشهرة التى ينالها اليوم على أقلام المؤرخين ، ولولاه ، لكانت ذكرى عبداللطيف البغدادى قد طمرت تحت ركام النسيان ، لم يبق منها في الأغلب ، غير ما كتبه عنه ابن أبى أصيبعة في طبقات الأطباء .

المراجــع

١ — ابن أبي أصيبعة ، عيون الأنباء في طبقات الأطباء ، دار الفكر ، بيروت ، ١٩٥٧ ، الجزء الثالث ، ص . ٣٣٠ — ٣٤٩ .

2 — Hafuth Zand, K., John, A. & Ivy, E. Videan, The Eastern Key, 1964, Allen and Unwin, London

٣ — ابن أبي أصيبعة (١) ، ص : ١٨٦ — ١٩٠ .

٤ — بول غليونجي ، ابن النفيس . سلسلة التراث العربي ، وزارة الإرشاد والأنباء (وزارة الإعلام) في الكويت . ١٩٦٩ ، ص : ٩٣ — ١٠٦ .

٥ — محمد عبدالحليم العقبي . ١٩٦١ . تاريخ الطب عند العرب . مجلة الجمعية المصرية لتاريخ العلوم ، العدد ٣ ، ص ٥ .

٦ — المقالة الصالحية في إحياء الصناعة الطبية ، المنسوخ مودع بمكتبة جامعة برنستون ، رقم H ٥٥٦ . انظر :

Brockelmann, C., 1937, Geschichte der Arabischen Literatur, III, 892:

7 — Jaden, S. Y, 1970, Bull. Hist. Med., XLIV, 1, p 64

٨ — كتاب التصريح بالمكنون في تنقيح القانون . انظر Brockelmann (٦) .

٩ — أيام صلاح الدين ، تأليف عبدالعزيز سيد الأهل ، ١٩٦٤ . لجنة التعريف بالإسلام . المجلس الأعلى للشئون الإسلامية ، الكتاب العاشر ، صفحة ١٣٠

10 — Brockelmann (6); S., 1, p 881

11 — Kraus, P., Plotin chez les Arabes, 1941, Bull. Inst. Eg., XXIII, p 277

١٢ — الأفلاطونية المحدثة عند العرب ، الدكتور عبدالرحمن بدوى ، ١٩٥٥ ، مكتبة النهضة ، القاهرة ، ص : ٢٤٨ — ٢٥٦ .

13 — Dietrich, A., Die Arabische Version einer unbekannten Schrift des Alexander von Aphrodisias ueber die Differentia specifica, Nachr. Akad. Wiss. Goettingen, Phil.-Hist. Klasse, 1964, p. 100, etc

14 — Stern, S.M., A Collection of treatises by Abdel-Latif Al-Baghdadi, in „Islamic Studies", Jour. of the Central Institute of Islamic Research, Karachi, 1962, Vol. 1, No 1, pp. 53-70

15 — Meyerhoff, M., von Alexandrien nach Bagdad, 1931, Mittei'. Deutsch. Inst. f. Aeg. Altertumskunde in Cairo, 2, 1-21

١٦ — المعجم الفلسفى ، تأليف يوسف كرم ومراد وهبة ويوسف شلالــة ، ١٩٦٦ ، مطبعة كوستا تسوماس ، القاهرة ، ص : ١٢٢ .

17 — Dietrich, A , Ein Arzneimittelverzeichnis des Abdellatif Ibn Yusuf Al - Bagdadi , (Der Orient in der Forschung, ed. W. Hoenerbach, O. Harrassowitz, 1967, p. 42.

١٨ — فصيح ثعلب والشروح التى عليه ، نشره محمد عبدالمنعم خفاجى وعلق عليه ، ١٣٦٨ — ١٩٣٩ مكتبة التوحيد بدرب الحمامير ، القاهرة .

19 — Abdollatiphi compendium memorabilium Egypti Ara bice ecodice mso Bodleians edidit D. Joseph White, proefatus est H. Eberh. Glo. Paulus, Tuebingen, 1789.

20 — Abdellatiphi historiae Aegypti compendium, arabice et latine partim ipse vertit, partim a Pocockis versum edendum curavit notisque illustravit, by J. White, Clarendon Press, Oxford, 1800

12 — Abdel Latif eines arabischen Arztes Denkwurdigkeiten Aegyptens, by S.F.G. Wahl, Halle, 1790

22 — Relation de l'Egypte par Abdallatif, par A.I. Silvestre de Sacy, Impr. Imperiale, Paris., 1810.

٢٣ — موفق الدين عبداللطيف البغدادى فى الذكرى المئوية الثامنة لميلاده ، المجلس

الأعلى لرعاية الفنون والآداب والعلوم الاجتماعية . ١٩٦٣ . القاهـــرة
(١) ص :١٧ ، (ب) ص :٣٣ – ٤٥ .

24 — Lucas, A. and Harris, J.R., 1962, Ancient Egyptian Materials and Industries, Arnold, London, p. 271

25 — Galen, On the usefulness of the parts of the body (de usu partium), transl. from the Greek by M. T. May, 1968, Cornell Univ. Press, Ithaca, New York, p. 546

٢٦ – فوات الوفيات ، تأليف محمد بن شاكر بن أحمد الكتبي ، الجزء ٢ ، ص ١٦ ، رقم ٢٥٦ ، مكتبة النهضة بالقاهرة .

٢٧ – دكتور فيصل دبدوب . مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، سنة ١٩٧٠ ، الجزء الثانى من المجلد ٤٥ ، ص ٢٣٢ – ٢٤١ .

٢٨ – ابن أبي أصيبعة (١) ، الجزء الأول ، ص ١٣٦ .

٢٩ – ابن أبي اصيبعة (١) ، ص ١٤٤ .

30 — Plato, Timmaeus, with an English translation by R. G. Bury, Heinemann, London, 1961, 44 D — 45 B

31 — Siegel, R.E , 1970, Galen on Sense Perception, Karger, Basel, p. 24

32 — Galen (25), I , 457, pp. 395-396

33 — Siegel (31), p. 14-15

34 — Aristotle, On the soul, Greek text with an English Translation by W.S. Hett, Loeb Class. Libr., Heinemann, London, 1957; 413 b 5.

35 — Siegel (31), pp. 174-175

36 — Siegel (31), p. 178

37 — Siegel (31), p. 191

38 — Galen (25), II, 381, p. 685

39 Siegel (31), pp. 182, 183

40 — Siegel (31), p 190

41 — Siegel (31), p. 168

42 — Siegel (31), p. 142.

43 — Kuehn, Claudii Galeni opera omnia, ed. by D.C.G.Kuehn, Vol. 11, pp. 697, 702, 703

44 — Siegel, R. E., Galen's System of Physiology and Medicine, 1968, Karger, Basel, p. 260

45 — Siegel (31), pp. 82, 104

46 — Aristotle, On the Soul (34), 434 b 26-435 a 4

47 — Siegel (31), pp. 133-135

٤٨ — النحو الوافـــي ، تأليف عباس حسن ، ١٩٦٣ ، جزء ٢٤ ، ص ١٢٤ .

٤٩ — إنباه الرواة على أنباه النحاة ، تأليف الوزير جمال الدين أبي الحسن على ابن يوسف القفطى بتحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم ، مطبعة دار الكتب المصرية ، القاهرة ١٩٥٢ ، الجزء الثانى ، ص : ١٩٣ .

٥٠ — ابن القفطى ، تأريخ الحكماء ، ١٩٠٣ ، وهو مختصر الزوزنى المسمّى بالمنتجات الملتقطات من كتاب إخبار العلماء بأخبار الحكماء لجمال الدين أبى الحسن على بن يوسف القفطى ، نشره يوليوس ليبرت Julius Lippert وقدم له بترجمة للقفطى ، المقدمة الألمانية ص : ٩،٨

٥١ — شذرات الذهب في أخبار من ذهب لأبى الفلاح عبد الحى بن العماد الحنبلى ، المكتب التجارى للطباعة والنشر والتوزيع ، بيروت ، ٥ : ١٣٢

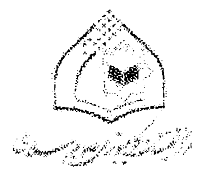
٥٢ — ابن مكتوم ، انظر : إنباه الرواة (٤٩) ، ص : ١٩٦ ، هامش (١) .

٥٣ — كشف الظنون ، ١٩٤١ ، تأليف مصطفى بن عبدالله الشهير بحاجى خليفة ، وكالة المعارف الجليلة ، الجزء الأول ، ص : ٦٩٦ .

لقد تُرجم أيضا لعبداللطيف دون أن يُضاف إلى ماورد في التراجم التى ذكرناها ، من مصادر القدامى فى : بغية الوعاة ٣١١ ، تاريخ الإسلام للذهبى (وفيـــات سنة ٦٢٩) ، وتلخيص ابن مكتـــوم ١١٤ – ١١٧ ، وحسن المحاضرة ، ١ : ٣٣٢ ، ٢٣٣ ، وطبقات ابن قاضى شهبة ١ : ٩٨ – ٩٩ ، ومرآة الجنان ٥ : ٦٨ ، والمستفاد من ذيل تاريخ بغداد ، الورقة ٥٠ .

ومن المصادر الحديثة : عبداللطيف البغدادى فى مصر ، تأليف سلامة موسى ، مطبعة المجلة الجديدة ، القاهرة ، ١٩٣٧ .

عبداللطيف البغدادى ، العدد ٣ من قصص الرحالة والمستكشفين ، دار المعارف ، القاهرة ، تأليف عبدالسلام العشرى ، ١٩٦٣ .



فهـرس عـام

للاعلام والمواضيع والمصطلحات

مع مراعاة أن كلمة « ابن » و « ابو» اعتبرت أصلا ، فمثلا « ابن سينا » و «ابو بكر» ، ينظران في حرف الهمزة .

(ب)

(ت)

(ث)

(ج)

(ص)

(ض)

(ط)

(ظ)

(ع)

(غ)

(ف)

(ق)

(ك)

(ل)

(م)

(ن)

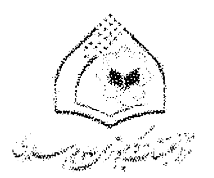
فهرست الالفاظ الاجنبية



فهرس



مطبعة حكومة الكويت



THE ARAB HERITAGE

A SERIES ISSUED BY THE MINISTRY OF INFORMATION
STATE OF KUWAIT

No. 18

Maqâlatân fi l-Ḥawâss
wa Masâ'il Ṭabiᶜya

Risala li l-Iskandar fi l-Faṣl
Risâla fi l-maraḍ al-Musammâ Diâbîṭis

By

Abd Al-Latif Al Baghdadi

Edited By

Dr. Paul Ghalioungui, M. D. and Dr. Said Abdou, M. D.

Under the Supervision of a Literary Committee from the
Ministry of Information

1392 A.H. - 1972 A.D.

KUWAIT GOVERNMENT PRESS

الثمن ٥٠٠ فلس او ما يعادلها